

دعوة الحق



مجلة شهرية تعنى بالمراسم الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السادسة والستون - العدد 443 - ذوالحجة 1444 هـ / يوليو 2023 م

عدد خاص بذكرى عيد العرش المجيد



دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السادسة والستون - العدد 443 - ذو الحجة 1444 هـ / يوليوز 2023 م



أسسها جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ/1957م

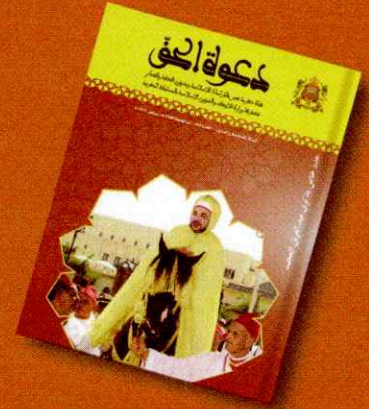


”... ولعلنا سنرا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار
مجلة جامعة تعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح
الدني، كما تعالج مختلف الشؤون الاجتماعية
والثقافية، ولنا وحييد الأمل في أن يلتفت حولها
لعلها الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد
وغيرها لتؤكد مهمتها خير أداء“.

وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.



مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

مدير المجلة

الأستاذ عبد العزيز أوالعسري

رئيس التحرير

الأستاذ عبد الحميد العلمي

العنوان

مديرية الشؤون الإسلامية،

وزارة الأوقاف الإسلامية

المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني: www.daouatalhaq.ma

البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhai.gov.ma

هاتف التحرير

05 37 76 59 05

هاتف مدير المجلة

05 37 76 17 21 / فاكس: 05 37 66 06 74

التوزيع

هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10

الحساب البنكي

القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة

الاشتراك التشجيعي: 500 درهم

المملكة المغربية: 150 درهم

الخارج: 300 درهم

ضمن العدد: 15 درهم

رقم الإيداع القانوني: 3/1981

الرقم الدولي: 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة

مطبعة المعارف الجديدة/الرباط - 2023



إمارة المؤمنين وضبط الاعتدال والتوازن بين روح العصر وروح الدين

ذ. سعيد شبّار

الكاتب العام للمجلس العلمي الأعلى

1 - سياق شرعي وتاريخي

الإمامة العظمى إرث وتقليد ديني وسياسي، عرفه المسلمون منذ وفاة النبي ﷺ، أي بدءاً بالخلفاء الراشدين ثم من تلاهم، مشرقاً ومغرباً، في الدول المتعاقبة على الحكم، إلى يومنا هذا في المغرب الأقصى وحده. قال ابن خلدون مبيناً حقيقة هذا المنصب "أنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، سمي خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماماً؛ (...) فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والافتداء به، ولهذا يقال الإمامة الكبرى؛ وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته، فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله"¹.

ويكتسي هذا الإرث والتقليد شرعيته الدينية والتاريخية، من النصوص الموجبة له، أي الموجبة لنصب الإمام وتعيينه، ومن الممارسة التاريخية الدالة عليه. ولهذا كان أمر وجوب الإمامة، شرعاً وعقلاً، لا خلاف فيه إلا من شذ عن ذلك. ف"عقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع"²؛ و"إذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية، كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط [أي وجوبها]، وفرضها على الكفاية"³، و"إذ تقرر أن هذا النصب، واجب بإجماع، فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل الحل والعقد، فيتعين عليهم نصبه. ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى: ﴿الْهَيْعُوا لِلَّهِ وَالْهَيْعُوا لِلرَّسُولِ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾"⁴ 5. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميراً فقد أطاعني، ومن عصى أميراً فقد عصى الله".

1 - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الواحد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م، ج 2/ ص 564.

2 - الماوردي: الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية بيروت، ص 5.

3 - نفسه، ص 6.

4 - سورة النساء، الآية: 58.

5 - ابن خلدون، المقدمة، ج 2/ ص 566.

فقد عصاني“⁶. وهي واجبة بالعقل كذلك: ”لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين وهمجا مضاعين“⁷. وكذلك: ”لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض، فما لم يكن الحاكم الوازع، أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم، مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية“⁸.

ولهذا الإرث شرعية أخرى، ذات طبيعة تنظيمية تعاقدية، تتجلى في البيعة بين الإمام والأمة، والتي لها شواهد كذا من نصوص الدين ومن الفعل النبوي، يكفي أن نذكر أن الأصل فيها، ما قرره ووثقه القرآن الكريم بهذا الصدد، كما في قوله تعالى: ﴿ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وإنه هو العز العظيم﴾⁹؛ وقوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعوننا إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما﴾، إلى قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعوننا تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا فريدا﴾¹⁰؛ ويتعلق الأمر ببيعتي العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان؛ وهناك بيعات أخرى منها البيعة التي تسمى بيعة النساء، مع اختلاف في زمن وقوعها، في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا، ولا يسرفن ولا يزنين ولا يفتلن أولادهن، ولا ياتين بهفتان يعتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف، فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾¹¹. وتذكر كتب التاريخ والسيرة حوارا جديرا بالتأمل، أثناء مبايعة هند بنت عتبة للنبي ﷺ في فتح مكة حول بنود هذه البيعة؛ حيث كانت كثيرة التعليق والاستيضاح والرسول عليه السلام يوضح، وذلك رغم سوابق هذه المرأة شديدة العداء للإسلام والمسلمين؛ لكن لم يسمح الرسول عليه السلام أن يكون لتلك السوابق تأثير على التعاقد الجديد، ولو كانت تمثيلا بجثث المسلمين عامة وبعمه حمزة بن عبد المطلب خاصة؛ إذ تغاضى عن كل ذلك وتمت البيعة، وكان لهند دور وإسهام إيجابي في بناء الأمة وفي حروبها اللاحقة.

6 - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»، رقم 7138.

7 - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 5.

8 - ابن خلدون، المقدمة، ج 2/ ص 565.

9 - سورة التوبة، الآية: 112.

10 - سورة الفتح، الآيات: 10-18.

11 - سورة الممتحنة، الآية: 12.

والنهوض بأوضاع المرأة والشباب، ووضع برامج تُعنى بالتنمية البشرية وتعميم التغطية الصحية وغيرها.

ومن موجبات هذا الاستقراء ما تم إنجازه في العقل الديني مثل بناء المساجد وصنع المصحف الشريف، وإحداث هيئة عليا للإفتاء، ووضع برامج خاصة بالأئمة والمرشدين، وتمتيعهم بالرعاية الصحية والعناية الاجتماعية.

أما على الصعيد الخارجي فلمولانا أمير المومنين حفظه الله جهود تذكر منها عنايته بالمغاربة المقيمين بالخارج وتروسه للجنة القدس الشريف وإبرام الاتفاقيات وجلب الاستثمارات؛ الأمر الذي يوأله مكانة سنية أكسبته احترام العالمين وإعجاب المهتمين والمتابعين وهذا بفضل حكمة مولانا أمير المومنين عام له النصر والتمكين.

إن احتفال المغاربة بهذا الذكر تأكيد للتلاحم الدائم بين العرش والشعب، وتعبير عن تعلق الشعب المغربي بأهداب العرش العلوي العبيد في شخص أمير المومنين عام له النصر والتأييد. وتاريخ المغرب شاهد على ما نحن فيه، قال أعز الله أمره:

«إن تاريخ المغرب حافل بالدروس والإنجازات التي تؤكد أننا نتجاوز دائما الأزمات بفضل التلاحم الدائم بين العرش والشعب».

إنه أمير المومنين بن أمير المومنين فحسب لنا نحن المغاربة بما من به الله تعالى علينا من نعمة تتعلق بالإمامة العظمى في شخص أمير المومنين التي ينبو بها عن رسول الله آخر الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

لذا يسعد إشارة مجلة الدعوة الحق أن تقرأ هذا العدد لذكر عيد العرش العبيد بمشاركة ثلة من العلماء العاملين والأساتذة الباحثين احتفاء بمنجزات أمير المومنين حامي حمى الملة والدين، الساهر على مصالح المواكبين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

د. عبد الحميد العلمي



افتتاحية

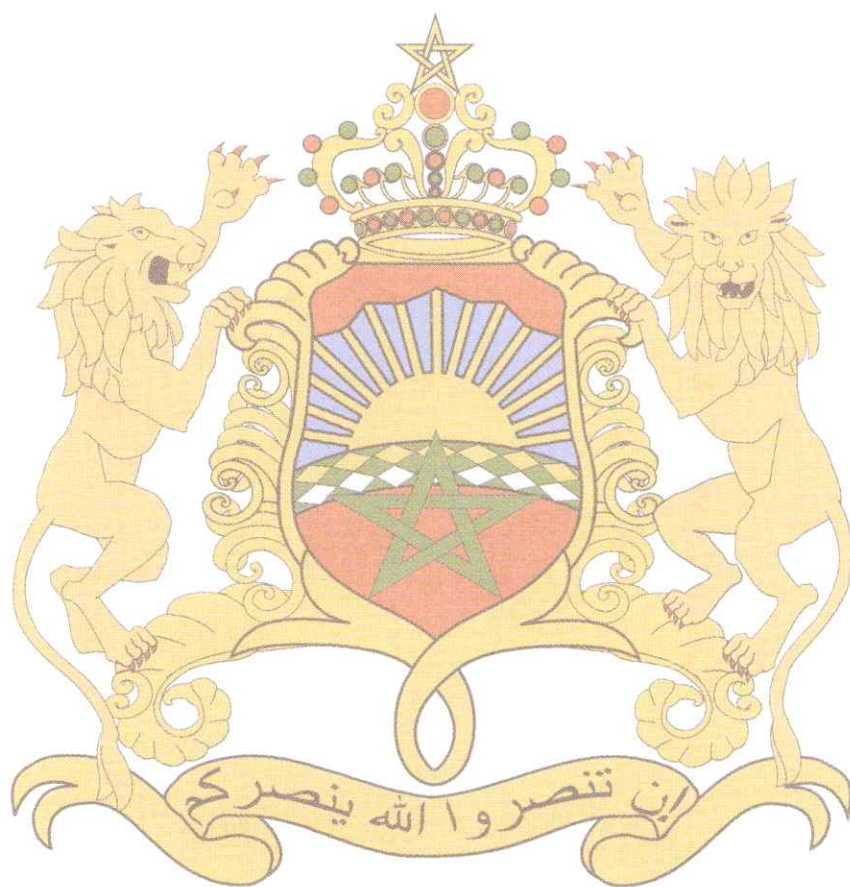
بسم الله الرحمن الرحيم، وصل اللهم على من بعثته قائما بأمر الدين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يخلد الشعب المغربي هذه السنة الاحتفال بالذكرى الرابعة والعشرين لتربع أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله على عرش أسلافه المنعمين، إذ هي مناسبة لتذكير المغاربة بمرئيتهم، إيذاناً بمضي جلالتهم في تحمل المسؤولية التي نالها الله تعالى بها القائمة على حراسة الدين ورعاية مصالح المواطنين، وهما أمران لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، إذ لا قيام لصلاح الدنيا إلا بالانحياز على الدين، جاء في الفصل 41 من دستور المملكة 2011م «الملك أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين والضمن حرية ممارسة الشؤون الدينية» قال نصره الله «وبصفتي أمير المؤمنين وكما قلت في خطاب تقديم المذونة أمام البرلمان: فإنني لن أحل ما حرم الله ولن أحرم ما أحل الله لا سيما في نصوص القرآن القصصية».

لذا تواتر نعم أيداعه السابغات على حماية المقامات والنهوض بالمنجزات في مختلف القطاعات. إنها مناسبة لتجديد العهد بين الشعب المغربي ولأمير المؤمنين أعزله الله الذي ما فتى قائما على العمل بما ولاه الله إياه، ما ضيأ في تحقيق المكتسبات سواء تعلق الأمر بالقضايا الوصية أو بالهياكل الدولية، قال حفصه الله :

«إن التزامنا بالنهوض بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لا يعالجه إلا حرصنا المتواصل على معالجة أولويات المغرب على الصعيدين الجهوي والدولي».

والقول بالصعيدين إشعار بأن من رام استقراء ما حققه أمير المؤمنين نصره الله لشعبه الوفي، عليه أن يستفرغ الوسع في تحصيل المناقب التي تشع منها في مجالات التعليم والصحة والفلاحة والاقتصاد،





أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده

ويكفي أن نذكر من الدلالات العامة لبيعة النساء هذه، وخصوصا في سياقها التاريخي العام (ق7م)، أي العصور الوسطى التي تسمى مُظلمة في التاريخ الأوروبي، والتي لم يكن فيها حقوق لا للرجال ولا للنساء؛ أن التحول الكبير الذي أحدثه الإسلام في النظم السياسية والاجتماعية، وفي العلاقات الخاصة والعامة، وفي اعتبار الذمة الذاتية الحرة والمستقلة للأشخاص ذكورا وإناثا؛ أن النساء بايعن بهذه الصفة، أي باستقلال ذمتهم وحريتهن الكاملة، فلم ينب عنهن الرجال في البيعة، ولا تم فرضها عليهن في غيابهن. بتعبير آخر أنهن شاركن فيما كان محظورا عليهن المشاركة فيه، أي الشأن العام الديني والسياسي، والاجتماعي الأمني، والأخلاقي المبدئي، وغيره.

لقد تجلت المضامين التعاقدية الكبرى لهذه البيعات عموما في: عدم الإشراك بالله، والكف عن إتيان المحرمات (السرقه، الزنا، قتل الأولاد، الكذب...)، والنصرة بالجهاد وقاتل الأعداء، الطاعة والولاء في المعروف، الإنفاق في سبيل الله... إلخ. وطبعاً ستعرف صيغ البيعة والتعاقد تطورا بتطور واتساع نفوذ الأمة، وبحدوث وقائع جديدة، حيث انعكس ذلك في اشتراطات تشترطها الأمة على الإمام، ويشترطها الإمام على الأمة. بل لقد اختلفت صيغ البيعة على العهد النبوي نفسه، فلو قارنا بين نماذج البيعات التي ذكرنا وشروطها، لوجدنا في بعضها شروطا أخلاقية تضمن صلاح الأفراد واستقامتهم تأهيلا لهم للمشاركة في بناء كيان الأمة؛ وفي البعض الآخر شروطا والتزامات سياسية وأمنية ومالية، تحفظ هذا الكيان وتصد عنه العدوان. وهكذا تواترت البيعات بعد العهد النبوي في الخلفاء الراشدين، حيث أجمع الصحابة من الأنصار والمهاجرين على بيعة أول خليفة، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم من جاء بعده من الخلفاء والأمراء والسلاطين، مع مراعاة الاختلاف الذي اقتضه سياقات كل مرحلة من المراحل. تتم البيعة إذن، من خلال وثيقة تلزم، من جهة، الإمام بحفظ نظام الأمة ووحدتها وضمان أمنها وسلمها، ورعاية مصالحها المختلفة؛ وتلزم الأمة وممثليها، من جهة أخرى، بالنصرة والطاعة والولاء، تجندا وراء الإمام لإنجاح كل ذلك. ولقد كان في طليعة هؤلاء على الدوام العلماء باعتبارهم ضمير الأمة والمعبرين عن هويتها الدينية، ثم عموم الأمة بمن يمثلها من مسؤولي القطاعات والمصالح المختلفة.

ولقد عرف القطر المغربي نظام الإمامة والبيعة الشرعية، على مدار أزيد من اثني عشر قرنا؛ وكان هذا المنصب، كما سيأتي في تعريفه، يحرس الدين من جهة، ويسوس الدنيا من جهة أخرى. أي يحرص ويصون الاختيارات الدينية المذهبية التي اختارها المغاربة وتخلصوا من غيرها، والمعروفة بالثوابت الدينية: عقيدة أشعرية، وفقها مالكية، وسلوكا جنيديا؛ وكلها اختيارات مبنية على التوسط والاعتدال، ولزوم يسر وسماحة الدين من غير غلو أو تشدد؛ وكأن العناية الإلهية ساقتهم إليها سوقا لفطرتهم السليمة، ولواقعهم الذي لم تفسده الصراعات العقائدية والفكرية، التي عرفها المشرق في تعدد الديانات والفلسفات والمذاهب

والطوائف التي عرفها المشرق. خصوصا إذا علمنا أن الذي تخلصوا منه، كان نزعات مذهبية شيعية وخارجية واعتزالية؛ بل وحتى مذاهب سنية في الفقه سادت في الغرب الإسلامي لفترة ثم غادرت، مثل المذهب الكوفي الحنفي ومذهب الإمام الأوزاعي، وذلك لتعرف أهل المغرب على ما هو أرجح وأنسب لهم، وتعلقهم به دون غيره.

منذ ذلك العهد بدأ تشكل ما نسميه اليوم بـ "الخصوصية المغربية"، التي من أبرز مقتضياتها:

✽ الاستقلال عن الخلافة المشرقية؛

✽ عدم التأثر كثيرا بالخلافات المذهبية الفكرية والعقائدية التي عرفها المشرق؛

✽ بناء النسق السياسي والديني الخاص، وعلى رأسه الاختيارات المذهبية وإمارة المؤمنين؛

✽ القدرة النقدية والمراجعة الاستيعابية، للعلوم والمعارف المنقولة والوافدة حتى داخل النسق المذهبي الواحد؛

✽ رسوخ هذه الاختيارات عبر القرون في الدول المتعاقبة على الحكم، وكونها الثابت الذي لا يتغير، حيث صارت تشكل الهوية الحافظة لوجود الأمة والضامنة لأمنها واستقرارها.

واستمر ذلك إلى عصرنا الراهن مع جيل علماء الاستقلال والإصلاح، ومع مؤسسة مشيخة العلماء وتنظيم عملها وجهودها على عهد جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، ثم الانطلاقة الأوسع التي هي تحول نوعي وكمي على مستوى مؤسسة العلماء، على عهد جلالة الملك أمير المؤمنين الملك محمد السادس حفظه الله؛ فهو رئيس المجلس العلمي الأعلى، حيث تمت دسرة هذه المؤسسة وهيكلتها، وتعميمها على الصعيد الوطني، وتنويع أنشطتها التكوينية والتأطيرية للقيمين الدينيين، وتفعيل وظيفتها التواصلية مع المحيط الاجتماعي والتربوي والصحي والبيئي وغيره.

هذا مع اشتغال دؤوب على مستوى المؤسسات التكوينية، وعلى رأسها "معهد تكوين الأئمة المرشدين والمرشدات"؛ وعلى مستوى برامج تأطيرية كبرى على رأسها "ميثاق العلماء"، الذي يحضره حوالي ست وخمسون ألف إمام مرتين كل شهر؛ وعلى مستوى الإعلام في الدروس الحديثة التفاعلية وفي منصة الحديث، وفي قناة وإذاعة محمد السادس؛ وعلى مستوى مختلف الأنشطة التي تزاو لها المجالس العلمية، صيانة لوحدة وانسجام الخطاب والعمل الديني؛ وذلك بدرء الفتنة عنه من جهة، وقد تحققت في ذلك جهود مقدرة حمت وتحمي تدين المغاربة من نوازع الفرقة والغلو؛ وإسهاما منها في تنمية وترقية المحيط تفاعلا مع مؤسساته المختلفة، تربوية وصحية وبيئية وغيرها. وهذا كله جزء هام وعنصر حاسم، من عناصر الإجابة عن الاستقرار المغربي والأمن الروحي فيه، واللذين تحميها وتصونها إمارة المؤمنين.

ولقد اندثر هذا الإرث وتلاشى بعد اتصال المسلمين بالغرب والدخول في حروب استعمارية، بإعلان انتهاء آخر نموذج له في الخلافة العثمانية؛ والتي قيل عنها أنها كانت مثل عصا سليمان عليه السلام، تحمل جسدا للأمة هالكا منخور الداخل، من كثرة النزاع والصراع؛ وما دلهم على موته إلا الاستعمار، كما دلت الأرضة التي نخرت العصا على وفاة سيدنا سليمان عليه السلام. وبقي هذا الإرث راسخا في بلد واحد من بلاد المسلمين، هو هذا المغرب الأقصى. ومن يتتبع ذلك من العهد الإدريسي الأول، إلى العهد العلوي الراهن، سيعرف معنى هذا الرسوخ الذي شكل وصاغ هوية المغرب، وخصوصيته الدينية والسياسية عبر التاريخ؛ سواء في استقلاله عن الخلافة والمؤثرات المشرقية، أو في تدبير شؤونه الداخلية.

كان للاستعمار الغربي، من جهة، وإلغاء الخلافة، من جهة أخرى، دور حاسم في نشوء وتأسيس تيارات وحركات دينية وفكرية ذات مرجعيات وولاءات مختلفة؛ بعضها موالى للغرب نفسه، وبعضها متشبث بقوميته العربية، وبعضها اتجه إلى استعادة أجماد الإسلام والتمكين له، بحيث تجلى في نشأة تنظيمات حركية إسلامية. وإذا تجاوزنا خطوط الاعتدال في هذه المكونات، التي كان بينها سجال حاد وحيوي هو استمرار لأسئلة الجيل الأول للنهضة العربية بمدارسها المختلفة، في قضايا: الوحدة، والتحرر، والنهضة والتقدم، والإصلاح والتغيير...؛ سوف ننتهي في فترتنا الراهنة إلى خطابات عارية عن تلك الأسئلة ومضامينها العلمية والمعرفية، وإلى تراجع ونكوص كبير لفائدة شعارات مفرغة من المضامين، تبحث عن الشرعية أكثر مما تحمل مشروعا، وتتطلع إلى الحكم والسلطة أكثر مما تتطلع إلى التبليغ والإصلاح. حيث نشأت، من جهة، تيارات الغلو والتطرف الديني النازعة إلى الحكم، تقفز على التاريخ وتطوي مراحلها من أجل استعادة تقليد الخلافة أو الإمامة ولو بأبشع وأقبح الوسائل، المنتهكة لأعلى وأكبر الكبائر والمحرمات: من قتل الأنفس، وهتك الأعراض، وسلب الأموال، وترويع الآمنين، والفتنة في الدين. لقد حاولت بعض تيارات الغلو والتشدد الانتساب إلى مفهوم الإمامة أو الإمارة، بل والمصادرة عليه؛ لكن غاب عنها أن الإمامة نسب أو سند شرعي ممتد وعريق في التاريخ؛ وأنها تتقرر بالبيعة الشرعية رضا ومحبة وولاء، وليس قهرا وتسلطا وغلبة؛ وحتى إن شاب بعض صورها في التاريخ شيء من ذلك، فإنه لا يجب أصلها الشرعي؛ وأنها لخدمة مصالح الأمة والتمكين لقيم الدين العليا فيها، وليس العكس؛ وأن للعلماء ومشيخة العلم الوارثة للعلم النبوي، الدور المحوري في تبليغ وتنفيذ التزامات الإمام مع الأمة؛ وأنها بعد هذا كله، رمز وعنوان على الوحدة والأمن والاستقرار، وليس العكس.

اندثر هذا الإرث كذلك، بعد أن حل وهيمن نموذج الدولة الحديثة، التي عرفها السياق الفكري الديني والسياسي في الغرب، والتي تسير على خطاها اليوم بشكل متفاوت، سائر الدول بما فيها الدول الإسلامية، ومنها المغرب مع خصوصيته التي تفرد بها؛ وذلك لإيجابيات تنظيمية وتديرية كثيرة مشتركة

في نموذج الدولة الحديثة، لكن أيضا بخصوصيات تاريخية دينية وسياسية، وفكرية فلسفية مؤطرة لهذا النموذج في سياق تطوره. أي أن المغرب استطاع أن يحقق معادلة التوازن الجامعة بين روح العصر وروح الدين، دون إفراط أو تفريط في أحدهما على حساب الآخر.

2- تعريفات قديمة وخلاصات راهنة

نقدم هنا تعريفات للعلماء نستخلص منها باختصار، قضايا لها راهنتها في التداول المعاصر لدى المسلمين خاصة. فقد قيل في تعريف الإمامة، أنها مختصة بـ "إقامة قوانين الشرع، وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة"¹²؛ وأنها "موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"¹³؛ وأنها لـ "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"¹⁴؛ فهي "رياسة تامة وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا"¹⁵.

فهذه التعريفات تربط في منصب الإمامة بين مجالي الدين والدنيا، بحيث يكون تلازمهما تلازما وظيفيا، مبنيًا على الاجتهاد والتقدير المصلحي، في جلب المنافع والمصالح للناس، ودرء المفاسد والمضار عنهم. وذلك هو مقصد الدين والشرعية الكلي، وهو نفسه مقصد السياسات والنظم المعاصرة في تدبير شؤون ومصالح الناس. حيث يعضد منصب الإمامة بخلفيته الدينية، منصب السياسة بخلفيته الدستورية، في التدبير الموحد والمنسجم للمصالح.

وينبني على هذا، أن دعوى أو أطروحة تعلق الإمامة بالدين وحده، لا معنى لها؛ فليس لها مستند لا من الدين نفسه، ولا من الممارسة السياسية في تاريخ المسلمين؛ وتبقى استعارة غير موفقة من نماذج سياسية غربية، تجعل من الحاكم حَكَمًا شكليًا لا حاكمًا فعليًا. فالملكيات التي نشأت في الغرب كان لها سياقها التاريخي الخاص في علاقتها بالدين خصوصًا؛ تاريخ مليء بالحروب والصراعات بين مؤسستين مستقلتين، لكل منهما سيادة، وكل منهما ينحو إلى الاستحواذ على السلطة وامتلاك الشرعية، سواء عن طريق الحرب، وكان هذا الغالب، أو الدمج بين السلطتين أحيانًا، أو التوافق بتحديد المهام والتمييز بين الوظائف. وهذا الذي استقر عليه الحال بعد عدة اتفاقات ومعاهدات، لعل أبرزها معاهدة وستفاليا. فلم

12 - الآمدي: أبحاث الأفكار، تحقيق أحمد محمد المهدي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ط2 / 1423 هـ - 2004 م، ج5، ص121.

13 - الماوردي: الأحكام السلطانية، ص5.

14 - ابن خلدون: المقدمة، ج2 / ص563.

15 - الجويني: الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق عبد العظيم الديب، دار المنهاج، ط4 / 1435 هـ - 2014 م، ص218.

يكن في تاريخ الإسلام مؤسستان مستقلتان متنافستان، إحداهما للدين والأخرى للعالم؛ وحتى الحروب التي عرفتھا المذاهب المسيحية، الكبرى على الأقل، (كاثوليك، وأرثوذكس، وبروتستانت)، لم يكن لها نظير بين مذاهب المسلمين. لقد كان هناك في تاريخ المسلمين، اندماج دائم بين السياسي والديني، مثله شرعية واحدة دينية وسياسية؛ نعم، كان هناك صراع حول السلطة يستغل الدين، لكنه كان بدوره يتم ضمن القاعدة نفسها.

وإشكالية الدين والدولة بالمنظور الغربي طارئة على هذا السياق، ولهذا اعتبرها الدكتور الجابري رحمه الله، من "الأسئلة المزيفة"، التي لا تستمد إشكاليته من الواقع؛ ذلك أن السؤال: هل الإسلام دين أو دولة، "سؤال لم يسبق أن طرح قط في الفكر الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى أوائل القرن الماضي [ق19]. وإنما طرح ابتداء من القرن الماضي، بمضمون لا ينتمي إلى التراث الإسلامي"¹⁶. ومثل هذا أيضا باقي الإشكالات التاريخية المستعارة، مثل ثنائيات: الدين والعلم، التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة... وحتى ما كان منها منتميا إلى تاريخ الأمة، من قبيل ثنائيات: الرأي والأثر، والحكمة والشرعية، والعقل والنقل...؛ فلا يعدو ذلك كونه صناعة تاريخية، ولدها السجال بين المذاهب الفقهية والكلامية والفلسفية، أو حكمتها اعتبارات منهجية تعليمية في تصنيف العلوم. أما أصل العلم والمعرفة كما هما مقرران في مصدرين الدين، القرآن والسنة، فمؤسسان على الدمج التركيبي بين المناهج: النقلية والعقلية والتاريخية والحسية والنفسية...؛ وعلى الجمع بين القطعي المحكم المعياري المرجعي، وبين الظني المتشابه الاجتهادي. إذ لا تعارض بينها كلها، حينما يأخذ كل منهج مكانه وحجمه المناسب، ويتم تجنب تحويله إلى نزعة يتعصب لها أتباعها ضد نزعة أخرى يتعصب لها آخرون.

فليس في الإسلام أكليروس، ولا تفويض إلهي، ولا احتكار ووصاية، لا على الدين ولا على الدنيا. بل تدبير مبني على الاجتهاد، وعلى العلم والمعرفة، وعلى النظر العقلي والتقدير المصلحي؛ وذلك تبعاً لما هو معروف عند أهل السنة، من كون الإمامة من الفروع العملية، وليست من الأصول الاعتقادية؛ أي أن سياقها، التدبير العملي الاجتهادي، من خلال النظم والمؤسسات التي تخضع للاجتهاد والمراجعة والرقابة والمساءلة، وليس الإيمان الكلي القار القائم على التفويض والتسليم. وإنما أدرجها المتكلمون ضمن كتب العقيدة، لأن غيرهم أدرجوها هناك، فلزم الرد عليهم في المكان عينه؛ وقيل أيضا لبيان أهميتها، كي لا يعتقد أنها بانتمائها إلى الفروع قضية ثانوية¹⁷. ولقد ميز العلماء بين التصرفات النبوية فجعلها معظمهم في:

16 - الجابري، وجهة نظر.

17 - انظر التفتازاني: شرح المقاصد، حيث يقول معرفاً الإمامة: «هي رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحكامه في الفروع. إلا أنه لما شاعت من أهل البدع اعتقادات فاسدة مخلة بكثير من القواعد، أدرجت مباحثه في علم الكلام؛ تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 2/ 2011 م، ج 3/ ص 469. وانظر كذلك، الإيجي: المواقف (بشرح الجرجاني)، قال: هي

إن الإمامة تحول هنا أيضا باختصار، دون آفة الخروج عن روح الدين، والاعتراب في مكان وزمان الآخر، دون القدرة على الإفادة منه للحاضر والمستقبل.

هما تصوران إذن، لهما منهجية واحدة في الاعتراب، ولا يختلفان إلا في تحديد الوجهة، ماضي الذات أو حاضر الآخر؛ ويستعملان مفردات هي بريئة في أصلها من المعاني والدلالات التي شحنت بها، ومن السياقات التي وظفت فيها؛ ويبقى المتضرر هو حاضر الذات، أي الواقع الذي يعيشه الناس، وحاجته الدائمة إلى الاستفادة من ماضيه وإلى الاغتناء من تجارب الأمم، استلهاما وليس استنساخا. وهذا هو التركيب الضروري المطلوب، ومناطق المعادلة الصعبة؛ حيث ينبغي أن تتظافر الجهود وتتكامل، لضبط التوازن وبناء الاعتدال في الحياة الجماعية، تماما كما هو مطلوب في الحياة الفردية. أما إلغاء أو مصادمة أحدهما على حساب الآخر أو مصادمته له، فذلك تحول عن الوضع الطبيعي أو الفطري، وعن مسلك الاعتدال، إلى وضع تحكمه نزعات الغلو والتشدد أيا كان مصدرها.

إن أبلغ درس يمكن أن نستفيده من رواد النهضة في بلاد المسلمين، الذين بعثوا من جديد فكرة الإصلاح، أنهم قدموا للأمة مشاريع في: تجديد الفكر الديني، وفي إصلاح نظم التربية والسياسة، وفي العدالة الاجتماعية، وفي الحرية والتحرر، وفي وحدة الأمة ونهضتها، وفي العلاقة مع الغرب كيف نستفيد منه وكيف نحد من تسلطه. ولم يكن هم أي منهم المنافسة على الحكم ولا التغيير بامتلاك السلطة، إنما كان همهم التغيير بامتلاك الأنفس صلاحا في الفكر والتربية، وفي الأحوال والنظم المختلفة، التي بها صلاح المجتمع والأمة. لم يشكل للأسف هذا الجيل الإصلاحى مرجعية للفكر الحركي لدى التيارات الدينية التي جاءت بعد؛ بل ولم تُدرس بعد، بشكل دقيق، أسباب هذه القطيعة والنكوص الارتدادي عن مشروع الفكرة الإصلاحية الكلية، إلى البحث عن الشرعية التنافسية السياسية، أو المنازعة على السلطة والحكم. أهم ما قيل، من خلال التبع لما كتب في تشخيص هذه العلة، وهو قليل جدا، أن ثمة سببين رئيسين: أحدهما الاختطاف السياسي لتلك المشاريع، والثاني التدخل الأجنبي والضغط الداخلي لوقفها. وإن كان هذا على جانب من الصحة عموما، فإن تدقيق النظر في هذا النكوص فكريا وتربويا وممارسة، لا يزال حاجة قائمة ومطلوبة. فممارسة التغيير في هذه الأبعاد الكلية، باسم السياسة بما هي تنافس وتدبير جزئي للمصالح، فوّت على كثير من مناهضي التغيير والإصلاح، ممارسته من خلال بوابته الكبرى، التي هي الدين القائم على تخليق الحياة العامة ظاهرا، بما يحفظ نظامها وأمنها، ويرعى المصالح المختلفة فيها؛ وعلى تزكية الأنفس باطنا، بما يحفظ طمأنينتها، وحسن سلوكها وتصرفها في علاقات الناس المختلفة، حفظا للحقوق وأداء للواجبات.

إمارة المؤمنين وعنايتها بزوايا الصحراء المغربية ورباطاتها

• ذ. سمير بوزوينة

عميد كلية الآداب سايس - فاس

مدخل عام حول إمارة المؤمنين

تروم هذه الدراسة الكشف عن العمق التاريخي لإمارة المؤمنين وإبراز محددات وظائفها، وكيفية تأثيرها في بناء وتقوية الدولة المغربية، وذلك باعتبارها آلية من آليات بناء الدولة بالمغرب. فرغم ما كان لها من دور أساس في استمرارية الدولة المغربية، فإن هذه المؤسسة لم تلق اهتماما من لدن المؤرخين الفرنسيين والأنجلوساكسونيين، بحيث انصب اهتمامهم بالتأريخ للحروب والانتصارات والهزائم وللملاحم والبطولات والسلالات الحاكمة... إن تسليط الضوء على هذه المؤسسة هو حديث العهد، إذ بالمطلق لن يكون بمقدورنا أن نفهم علاقة المؤسسة السلطانية برعاياها إلا من خلال هذه المؤسسة التي تجسد امتداداتها العميقة بمختلف مكونات المجتمع المغربي. فإمارة المؤمنين تجسد في الحقل السياسي المغربي أعلى سلطة سياسية ودينية في بلد تأسست سلطته الحاكمة على مشروعية عليا هي المصدر الأم لكل المشروعات جميعها وهي المشروعية الدينية. وخاصية هذه المشروعية أنها تاريخية، ومتعالية في الوقت ذاته، فهي تستمد قوتها أولا من كونها نابعة من الوحي، وثانيا كونها تجسيدا للهوية الحضارية والتاريخية للأمة، وثالثا كونها تستند إلى مرتكز شرعي هو البيعة. (حيث تحضر مؤسسة إمارة المؤمنين في الفصل 41 من دستور 2011م).

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن المغاربة تبنا لقب إمارة المؤمنين للتعبير عن الاستقلال السياسي والروحي/الديني للمغرب عن الخلافة المشرقية. فتطور الدولة في المغرب إلى دولة مجاهدة (المرابطون والموحدون والسعديون)، جعل السلاطين يشعرون باستحقاقهم الألقاب التي تضيف الشرعية الدينية على حكمهم مثل لقب «أمير المسلمين» (في عهد المرابطين)، أو لقب «أمير المؤمنين» (في عهد الموحدين والمرينيين والسعديين)، إضافة إلى أن العصر العلوي تبنى فيه السلاطين العلويون لقب إمارة المؤمنين على

غرار أسلافهم السعديين، ويبدو أن المولى الرشيد هو أول من حمل هذا اللقب وذلك بعد دخوله إلى مدينة فاس ومبايعة أهلها له عام 1076هـ / 1665م.¹

وقد تسمى الرشيد بأمير المؤمنين في أول كتابة نقشها بفاس، وهي التي تخلد لذكرى بناء خزانة الجامع الكبير بفاس الجديد. وتجدر الإشارة إلى أن السلطان المولى الرشيد بادر إلى حمل لقب أمير المؤمنين بعد أن استتب له أمر فاس. وبخصوص الكتابة المنقوشة على عتبة باب الخزانة الكائنة في الجهة الجنوبية الغربية للجامع، على بعد متر واحد عن يمين الواقف أمام المحراب، نصها:

الحمد لله وحده، هذه خزانة أمر بصنعها وإنشائها الإمام

الأوحد الهمام أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين

أبو المعالي مولانا الرشيد بن مولانا علي الشريف الحسني أيد الله

أمره وأعز نصره بتاريخ فاتح شهر الله المحرم عام تسعة وسبعين وألف.

تكشف الكتابة المنقوشة عن جملة من الألقاب الرسمية التي اتخذها السلطان المولى الرشيد، فعلى غرار السعديين، تبنى السلطان العلوي لقب الإمام وأردفه بالأوحد. ولقب الإمام يدل على أنه الخليفة الأوحد الذي ينبغي أن يقتدي به كالإمام في الصلاة. كما حمل لقباً دالاً على نسبه الشريف: «الشريف الحسني». وتسمى أيضاً بأمير المؤمنين. واللافت للانتباه أن الرشيد انتحل هذا اللقب مبكراً، وبذلك تعتبر فاس المدينة الأولى التي دشن فيها السلطان المولى الرشيد لقد أمير المؤمنين.²

إمارة المؤمنين مؤسسة لبناء الدولة المغربية المتجددة

استطاعت مؤسسة إمارة المؤمنين على عهد الدولة العلوية أن تلتحم بالمجتمع وأن تكون فاعلة في توجيهه وتقوية لحمته، والحفاظ على ميكانزمات الدولة وآليات تطويرها وتجديدها. وفي هذا السياق تركز هذه الدراسة على إبراز مستويين هامين:

يتعلق المستوى الأول بإمارة المؤمنين والمقاربة الحكمائية

والمستوى الثاني بتدبير إمارة المؤمنين لحكمة الوجهة الوجيهة بأقاليم المغرب الصحراوية فيما يتعلق بالمستوى الأول، فإن إمارة المؤمنين استندت في مقاربتها الحكمائية إلى العلاقة مع العلماء والزوايا وذلك

1 - البفري محمد بن الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة أنجي 1888. ص. 302. انظر أحمد خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، الجزء السابع، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997. ص. 35.

2 - عوني حاج موسى، مدونة الكتابات المنقوشة السعدية والعلوية بفاس، دراسة تاريخية وفنية، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، تحت إشراف، د. محمد مزين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، 2004. ص. 143.

من أجل بناء مستوى بنيوي خاص. ففي ضوء نظرية مشيل فوكو، فمن يمتلك المعرفة يمتلك السلطة، فمن خلال إمارة المؤمنين، فطن سلاطين وملوك الدولة العلوية لأهمية المعرفة، فالسلطة بدون معرفة مآلها الزوال، فالمعرفة تعزز الجانب الفكري وتقويه وتجعل الدولة تتعالى فوق كل ما قد يحدث من اضطرابات ظرفية، والسقوط في إشكالات الهيمنة والسيادة المطلقة. فتوطيد علاقة المعرفة بالسلطة تجعل من هذه الأخيرة تسلك مسالك تضمن الاستقرار والحرية والرفاهية.

أما المستوى الثاني المرتبط بتدبير وسائط الواجهة (Les Interfaces)، فقد كان سلاطين وملوك الدولة العلوية سابقين إلى تبني وسائط احتضان المجتمع والإنصات إليه وفهم تصوراتهم وطموحاته والعيش الذي يريد أن ينعم فيه. فإمارة المؤمنين تعلم أن المغرب كان يعيش مفهوم العقد الاجتماعي الذي كانت فيه هذه الوسائط تمثل الدور المركزي، حيث إن المعرفة والحكمة ترسخ الرأس مال الروحي والديني والسياسي.. وبذلك فإن علاقة مؤسسة إمارة المؤمنين بالعلماء يحكمها منطق ضبط الحكم على أساس الشرع والقانون، والفهم الصحيح لما ينبغي أن تكون عليه الدولة والحكم، فعموما المعرفة تضمن هذه الأسس. في حين علاقة مؤسسة المؤمنين بالزوايا والرباطات والصلحاء والأشراف، يحكمها كذلك منطق ضم القبائل وخلق الالتفاف حول الأسس التي تستند إليها السلطة، وترسيخ العروة الوثقى مع السلطة. يتبين في سياق هذا التصور أن هدف مؤسسة إمارة المؤمنين هو بناء الدولة وليس تبني المقاربة الأمنية، وإنما مقاربة حكماية تستند إلى توطيد العلاقة مع العلماء والرباطات والزوايا وذلك من أجل البناء القوي لنظام الحكم. وبذلك تبقى مؤسسة إمارة المؤمنين، هي رمز وحدة الأمة، وصانعة السلم، ويبقى دور التحكيم هذا يقوي من شرعيتها السياسية - الدينية ويعطيها مكانة متعالية على المجتمع³. فالسلطان العلوي جسد عبر التاريخ المغربي مثال الحكم الأسمى⁴.

من أجل إبراز أهمية مؤسسة إمارة المؤمنين في بناء الدولة المغربية المتجددة، وقوة العلاقة التي تربطها بالمجتمع، سنتناول هذا الموضوع من خلال ثلاث زوايا:

1. علاقة إمارة المؤمنين بالعلماء الصحراويين وتسليط الضوء على وجوه فاعلة ومؤثرة في تاريخ المغرب.

2. علاقة إمارة المؤمنين بالزوايا والرباطات والأشراف من أجل تقوية البعد الروحي وترسيخ العروة الوثقى بين الإمارة والمجتمع.

3 - أكنوش عبد اللطيف، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، 1987م. ص. 125.

4 - ضريف محمد، تاريخ الفكر السياسي بالمغرب، مشروع قراءة تأسيسية، إفريقيا الشرق، 1988م. ص. 299.

يجدر بنا الإشارة إلى طرح السؤال التالي: لماذا التركيز بالضبط على ارتباط إمارة المؤمنين بأقاليمها الصحراوية وعنايتها بزواياها ورباطاتها؟

تركيزنا على دراسة علاقة إمارة المؤمنين بزوايا الصحراء المغربية ورباطاتها، يعود بالدرجة الأولى إلى ارتباطنا الشديد بوطننا من أقصى نقطة من الشمال فيه إلى أقصى نقطة بجنوبه حيث توجد صحراؤنا الحبيبة. إنها بالإضافة إلى ذلك مصدر إلهام جانب كبير من عبقريتنا وإبداعنا. وحبنا لصحرائنا هو بمثابة ذاك القلب النابض الذي يذكرنا بمن حملوا مشعل الحضارة انطلاقاً منها ومن تخومها ومرابضها إلى الأندلس ومن هناك إلى تمبوكتو إلى زنجبار.

أما الثانية فتنتطبق عليها حكمة سعيد عقل التي تؤمن بأن التاريخ طويل وأقواسه قصيرة، حيث إن التاريخ يحتفظ للإنسان بالجوهر ولا يحتفظ بالعرضي الزائل، ما يجعل كل مجتمع يراهن على التاريخ ولا يراهن على أقواسه. وبلغه ابن خلدون فالتاريخ يعلمنا كيف نراهن على التاريخ الطويل. فالتاريخ هو سجل ومدونة من المدونات التي يربي بها الله الشعوب.

فالصحراء المغربية تستمد أهميتها الإستراتيجية من كونها تعتبر مصدر الذاكرة المغربية وأحد المكونات الأساس في بناء الذات الأنطولوجية للوطن، مما يقتضي المزيد من البحث في كنه أسرارها وخباياها ومحاولة فهم الارتباط الوطيد الذي يجمعنا بها. وذلك استجابة لواجب رد الجميل لهذه الجهة من المملكة لما كان لها من فضل كبير في قيام الدولة المغربية، وتحقيق امتدادها إلى غرب أفريقيا وجنوبها ثم إلى شمال المتوسط مع نشر حضارتنا ببعديها العربي والأمازيغي. والرد العلمي على الطروحات الكاذبة التي تحاول يائسة نسف الروابط الجغرافية والتاريخية بين المغرب وصحرائه. ومن الدال في هذا الصدد أن يصدر هذا المقال بهدف الحرص على صيانة الذاكرة الوطنية وترسيخها.

لهذه الاعتبارات تتجلى أهمية القيام بهذه الحفريات في الذاكرة الوطنية التاريخية، في كون موضوع صحرائنا هو قضية لا يقبل المناولة الإيديولوجية الفجة والمهلهلة، فنصوص بيعات أهل الصحراء المغربية للسلطين والملوك العلويين تقف شاهد إثبات لعمق الترابط الفكري والوجداني والإستراتيجي الذي تتوحد من خلاله الصحراء مع باقي أرجاء الوطن، وإلى ما تمثله بالنسبة له كفضاء يختزل التاريخ العميق للمغرب عبر أزمنته التاريخية.

تتغنى هذه الدراسة تقديم سرد جديد لذاكرة تاريخية حية، وتهدف إلى تزويد الباحث في الشأن الصحراوي متونا من نصوص ورسائل جوابية لعناية سلاطين الدولة العلوية وملوكها بعلماء وشيوخ

وزوايا الصحراء المغربية وما يتضمن ذلك من معالم التقدير والتوقير والإنعامات... تجسيدا بذلك لقدسية ارتباط إمارة المؤمنين بأقاليمنا الصحراوية.

2. علاقة إمارة المؤمنين بالعلماء الصحراويين وتبسيط الضوء على وجوه فاعلة ومؤثرة في تاريخ المغرب

استمر الاعتراف التاريخي بالدور الخاص الذي تقوم به علوم الدين وحملتها إلى ما بعد قيام الحكم الاستعماري، مع الإشارة إلى أن أية فئة من الفئات المغربية الأخرى لم تحظ بمثل ما حظي به طلبة علوم الدين مع احترام وتقدير.⁵ ويدافع عبد الله العروي عن رأي يقضي بأن العلماء المغاربة في القرن التاسع عشر كانوا يمتلكون «نفوذا أخلاقيا أضفى المشروعية على كل الأعمال السياسية».⁶ ولذلك فالفقهاء هم الذين يقومون بتأويل الأحكام القرآنية، والعلماء هم المالكون لخاصية العلم ولأصول الفقه وللتفسير، وكلاهما يؤطران المجتمع.⁷

تقتصر هذه الدراسة على تبسيط الضوء على وجوه كان لها حضور قوي في تاريخ الأقاليم الصحراوية، ومن بينها:

أ. الشيخ ماء العينين وعلاقته بسلاطين العلويين

بدأت علاقة الشيخ ماء العينين بسلاطين العلويين سنة أربع وسبعين بعد المائتين والألف (1274هـ) عندما استقبله السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام في مدينة مكناس، وهو في طريقه إلى الحج... ثم توطدت علاقته بابنه السلطان محمد الرابع، ثم بلغت هذه العلاقة أوجها في عهد السلطان الحسن الأول ابن محمد، وفي عهد ابنه: عبد العزيز وعبد الحفيظ.

كان هؤلاء السلاطين يعتبرون الشيخ ماء العينين من علماء العصر، ولذلك شملوه بعناية خاصة، لما رأوا فيه من صلاح واستقامة وحسن خلق وزهد في الدنيا. ونسوق أمثلة على هذه العناية:

- ظهير السلطان مولاي الحسن ينفذ بمقتضاه إعانة شهرية للشيخ ماء العينين الشنقيطي لنشر العلم الشريف. (5 شعبان 1304هـ / 29 أبريل 1887م):

5 - أيكلمان. ديل ف، المعرفة والسلطة في المغرب، صورة من حياة مثقف من البادية في القرن العشرين، ترجمة محمد أعفيف، مطبعة ليتوغراف طنجة، 2009م. ص.3.

6 - Laroui Abdellah, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*, Paris, François Maspero, 1977.

7 - ريفي دانييل، تاريخ المغرب من مولاي إدريس إلى محمد السادس، المركز الثقافي العربي، ترجمة أحمد ابن الصديق، 2020. ص. 49.

الحمد لله وحده وصلى على مولانا محمد وآله وصحبه

نفذنا بحول الله وقوته وشامل يمينه ومنته للشيخ الجليل الخير البركة ماء العينين الشنجيطي خمسة عشر ريالاً في الشهر، إعانة له على ما هو بصدد من بث العلم الشريف ونشره، فنامر خدامنا أمناء مرسى الصورة المحروسة بالله أن يكونوا يدفعونها لنائبه ثمة كل شهر والسلام. في 5 شعبان عام 1304 هـ. زيد بخط مغاير أسفل الوثيقة ما يلي: يدفعون لنائبه عند رأس كل سنة ما يجب فيها بالحساب المذكور وهو مائة وثمانون ريالاً والسلام⁸.

• رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى عامل مراكش يأمره بتنفيذ بقعة أرضية للمرابط ماء العينين من أجل بناء زاوية بمراكش (4 شعبان 1306 هـ / 5 أبريل 1889 م):

الحمد لله

عامل مراكشة

وبعد، فقد طلب من جانبنا العالي بالله المرباط الخير السيد ماء العينين الإنعام عليهم بمحل مراكشة يبنون به زاوية لهم. فنأمرك لأن تنظر له بقعة بيضاء تناسب لذلك، وتمكنه منها، والسلام. في 4 شعبان عام 1306 هـ⁹.

• رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى الخليفة السلطاني بمراكش الأمير مولاي عثمان في موضوع تنفيذ أرض مسقية إعانة للزاوية التي يعتزم الشيخ ماء العينين اتخاذها بمراكش 4 شعبان 1306 هـ / 5 أبريل 1889 م:

مولاي عثمان

وبعد، فقد طلب من جانبنا العالي بالله المرباط الخير السيد ماء العينين الإعانة على الزاوية التي عزم على جعلها بمراكش بمحل للحرث، فأمرنا الوصيف أحمد أمالك وأمزال الحوز بأن ينفذا له به مقدار حرث أربعة أزواج بما يكفيها من الماء، وأعلمناك لتكون على بال من ذلك وتقف في تنفيذه له والسلام. في 4 شعبان عام 1306 هـ. ويكتب لأحمد أمالك بالتنفيذ وكذلك أمزال¹⁰.

8 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية من خلال الوثائق الملكية، القسم الأول، الجزء الثاني منشورات مديرية الوثائق الملكية، الرباط، 2012. ص. 411.

9 - نفسه، الجزء الثاني، ص. 505.

10 - نفسه، الجزء الثاني، ص. 507.

رسالة الشيخ ماء العينين الى السلطان مولاي عبد العزيز يشكره على حسن استقبال الوفد الذي وجهه إليه، وتتضمن الرسالة عبارات لها دلالات قوية إما على المستوى السياسي أو الديني، فالشيخ ماء العينين يقر ببيعة السلطان مخاطباً إياه بأمر المؤمنين شاكرًا له عطاءه وصلته، ثم ينتقل إلى مستوى آخر، يصبح فيه السلطان مريداً يعتمد أوراذا الشيخ فيخاطبه بعبارات أبوية مستعملاً « محبنا وقرة أعيننا ». 6 جمادى الثانية 1313هـ / 24 نونبر 1895م:

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى وآله وصحبه وسلم

أسعد الله أيام أمير المؤمنين الأجل. ونصر أعلام مولانا عبد العزيز المبجل. وأيد سعادة أيام دولته عامره. وأيد سيادته على ما يرضي الإله قاهره. محبنا وقرة أعيننا أمير المؤمنين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. مادام الكون وحركاته وسكناته. هذا ولقد علمنا ما فعله جنابكم الشريف بجنابنا من إكرام الوافدا عليكم من قبلنا، وليس عنده غير النسبة لنا. وتلقي القبول لأورادنا وأدعيتنا. واعتمادكم في الأوراد على إذننا. وإرسال الصلة لنا وفق ما كتبت أنا ملكم اليمنى، اعتناء بشأننا وتعظيماً لجانبنا، فصارت بذلك أسنى وأهنأ. فالله ينفعكم بذلك نفعا يديم مدده، ويتضاعف على مر الأيام عدده، ويجازيكم بملك لا ينبغي لأحد غيركم في دهركم. مع العافية في رعيتمكم، ودوام، نصركم على الأعداء برا وبحرا، يكون لأحبكم للمسلمين عزا وفخرا، لا ينقصه متعرض سرا ولا جهرا، ويجعلكم من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن قيل فيهم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، والله يحفظنا معشر الأمة فيك ويديم النفع بوجودك وبيقيك، وينيلنا وإياكم حسن الختام، وعلى المحبة، والسلام. في جمادى الأخيرة عام 1313هـ.

عبيد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين أمين.¹¹

ظهر السلطان مولاي عبد العزيز يحبس بمقتضاه محلين من أملاكه الخاصة لإقامة زاوية الشيخ ماء العينين بمراكش، وبنائها على نفقات السلطان وتبين هذه الرسالة التواصل الفكري القائم باستمرار ما بين القبائل الصحراوية والمناطق المغربية الأخرى وانتشار إشعاع زاوية الشيخ ماء العينين بأنحاء مختلفة من المغرب 23 رجب 1314هـ / 28 دجنبر 1896م .

11 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية ...، الجزء الثالث، ص. 741.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

الطابع السلطاني وبداخله

عبد العزيز بن الحسن بن محمد الله وليه

وبدأته:

ومن تكن برسول الله نصرته *** إن تلقه الأسد في آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الوري شرفا *** الله حافظه من كل منتقم

يعلم هذا الرقيم الكريم، والمسطور العظيم الفخيم، اللامعة بميامن المواهب الدنية أنواره، الساطعة بعناية الله في الحضرة المحمدية شموسه وأقماره، أننا لما شرح الله صدرنا بمحض مواهبه القدسية لإنشاء زاوية بالحضرة المراكشية، بقصد تحييسها على شيخنا ذي الأسرار السنية، العالم العامل الشيخ العربي الولي الصالح الكامل الفرد فد الواصل، سيدي الشيخ ماء العينين بن الشيخ الكامل سيدي محمد فاضل، صرفنا وجه العناية للبحث في محل يناسب بناءها فيه، يكون تام الشروط مستوفيه، حتى وقع الاختيار على المحلين المذكورين والمحدودين بأسفله، فأمرنا بمعاوضتهما على أحسن وجه وأكمله فعوضا معارضة شرعية على سنتها وشروطها المرعية. وحيث صار المحلان المذكوران ملكا لجنابنا العالي بالله، وأصدرنا شريف أمرنا بالشروع في بناء الزاوية بمحلها من مالنا الخاص بنا والخالص لنا. وشرع بالفعل في بنائها بهما، حبسنا جميع الزاوية المذكورة على شيخنا المذكور، ذي السعي الصالح المشكور، على أن تقام بها الصلوات الخمس ووظائفها، من أفعال أذان وقراءة حزب القرآن على طريقته، ووعظ واجتماع تلامذة الشيخ للذكر والتلاوة، وكل ما هو من أفعال البر في كل آن؛ على المهيع الشرعي وسنته، وعلى أولاده من بعده وأولادهم وأولاد أولادهم ما تناسلوا وامتدت فروعهم، حبسا مؤبدا ووفقا مخلدا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين: ومن بدل أو غير فالله حسيبه ومتولي الانتقام منه، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)، وبسطنا له يد الحوز على ذلك البسط التام الشامل المطلق العام. جعل الله ذلك خالصا لوجهه الكريم، بجاه سيدنا محمد ذي الجاه العظيم، عليه أفضل الصلاة والتسليم. ونعهد لجميع من وقف على هذا أن يعمل به ويقف عند حده ومذهبه، والسلام. صدر به أمرنا المعتر بالله تعالى في 23 رجب الفرد الحرام عام 1314هـ.¹²

رسالة الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد العزيز يشكره على ما تفضل به من تحييس زاوية بمراكش على شيخ ماء العينين. 24 رجب 1314هـ / 29 دجنبر 1896م:

12 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثالث، م س، ص. 759.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قرة أعيننا وقررة أفئدتنا أمير المؤمنين مولاي عبد عزيز، أعزك الله وأيدك، ودام دام (كذا) نصرك الله في المسلمين وعلى الكافرين، وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته، ما دام الكون وحركاته وسكناته. وبعد، فإني لما تفضل الله علي بما تفضلتم به أدام الله فضلكم على خلقه من تحبب الزاوية المذكورة (..) بالدعاء لكم بأفضل ما تعرفه العقول وأحسن ما (..) له النقول من كل دعاء حسن يقال بالمقول، وها أنا (..) حزب الزاوية (..) وتركت فيها تلامذتنا ليفعلوا فيها ما (..) فعله بالقيام، وجزاكم الله أيضا بما يحتويه، ومنه حسن الختام، والسلام. في اليوم الذي يلي تاريخه وهو في 24 رجب الفرد الحرام عام 1314هـ.

عبيد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين أمين.¹³
وبالنظر إلى المكانة الخاصة للعلامة ماء العينين لدى السلاطين العلويين فقد أجاز الأمير مولاي عبد الحفيظ:

إجازة الشيخ ماء العينين للأمير مولاي عبد الحفيظ. 11 جمادى الأولى 1322هـ / 24 يوليوز 1904م:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

ومن خط سيدنا ماء العينين

رضي الله عنه ونفعنا به آمين

وبعد، فليعلم الواقف هنا من جميع المسلمين أني أيتها الكاتب المسمى آخره، طلب مني ابني وابن حبيبي قرة عيني مولاي عبد الحفيظ بن مولانا الحسن نور الله ضريحه ء امين، أن أجزيه وأملي إبريزه في استعمال ما شاء من الآيات القرآنية والأسماء الحسنى، وغير ذلك من الأسرار المطلوب بها رضى ربنا الغفار. فقد أجزته في جميع ذلك إجازة عامة شاملة لأنواع الإجازة، بحيث يستعمل لنفسه ويعطي لغيره ممن رأى فيه الأهلية لذلك. وأسأل الله أن ينفعه وينفع على يديه كثيرا من المؤمنين. وأوصيه ونفسي بتقوى الله العظيم، واستعمال ذلك فيما يرضيه بالتمام، وعلى المحبة والسلام.

عبيد ربه ماء العينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين أمين. في 11 جمادى الأولى عام 1322هـ.¹⁴

13 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثالث، م س، ص. 763.

14 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثالث، م س، ص. 877.

رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين يعلمه بانعقاد البيعة له ويدعوه للقدوم عليه،
11 رجب 1325هـ / 20 غشت 1907م:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

الطابع السلطاني وبداخله عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد الله وليه ومولاه.

شيخنا وقرة أعيننا ومحل اعتقادنا، العارف بالله والذال عليه، العلامة الجامع السيد ماء العينين. أيدك الله، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وبعد، وصلنا كتابك الأعز لدينا وتيمنا بمقدمه علينا متشفعا في أبيها التكني، التماسا لتسريحه لما له من التعلق واللواذ بحماكم، وصار بالبال. أما المسجون فقد سرحناه قياما بالواجب من قبول شفاعتكم والعمل بإشارتكم ومن احتمى بحماكم فقد احتمى بحمانا. وقد قدمنا لجلالتكم الربانية كتابا باستقدامكم لحضرتنا الشريفة، بعد إعلامكم بما طوقنا الله تعالى به من القيام بأمور المسلمين لاتفاقهم على عقد بيعتنا المؤسسة على الأسوس (كذا) الشرعية. وعليه فلتعجل بالقدوم علينا بالسلامة والعافية. ونسألك صالح الدعاء بالإعانة والتوفيق، ونحن على عهد المحبة فوق ما تعهد إن شاء الله، والسلام. في 11 رجب الحرام عام 1325هـ.¹⁵

- علاقة المرباط أبي مدين القندوسي بالسلطين العلويين

عرف البيت القندوسي بكونه يضم مجموع العائلات والأسر التي يطلق على أفرادها اسم «المرباطين» وهم فروع شتى منتشرة من تلمسان وهران وبلاد المغرب، وهم ذرية الولي الصالح سيدي محمد بن عبد الرحمن الشهير بسيدي محمد ابن أبي زيان القندوسي، ينقسمون إلى ثلاثة فرق رئيسية؛ أولها أولاد الشيخ سيدي محمد الأعرج ابن الشيخ سيدي محمد ابن أبي زيان: وشهرتهم بأولاد بومدين نسبة إلى جدهم الشيخ سيدي أبي مدين ابن الشيخ سيدي محمد الأعرج ابن الشيخ سيدي محمد ابن أبي زيان. وبالنظر إلى أن أهل هذا البيت من أهل الدين والصلاح والرشاد فقد شملته عناية السلطين العلويين والظهير التالي يجسد ذلك:

- ظهير للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، ينعم به على المرباط أبي مدين القندوسي بجميع ممتلكاته، يبين هذا الظهير عناية السلطان بالمرباطين ورجال التصوف بالصحراء الشرقية، كما يبين الإشعاع الفكري لتايفاللت، حيث يملك هذا المرباط عدة أملاك. 11 ذي القعدة 1197هـ / 8 أكتوبر 1783م.

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
الطابع السلطاني وبداخله محمد بن عبد الله بن إسماعيل الله وليه ومولاه

وبدأثرته:

ومن تكن برسول الله نصرته *** إن تلقه الأسد في آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الوري شرفا *** الله حافظه من كل منتقم

يعلم من هذا الكتاب الكريم، المتلقى بالإجلال والتعظيم، أننا أنعمنا على المرابط الخير الدين السيد بو
مدين بن محمد بن محمد بن أبي زيان القندوسي بجميع ما له ويده من الأملاك الكائنة له [...] بالغرفة،
ورددنا له جميع أصوله ودوره المعروفة له بالغرفة المذكورة، وأنعمنا عليه بجميع ذلك إنعاما كلياً أبدياً
سرمدياً، من غير منازع ولا معارض له في جميع ذلك، والسلام، صدر الأمر المولوي السلطاني في الحادي
عشر من القعدة عام سبعة وتسعين ومائة وألف.¹⁶

ظهير السلطان مولاي الحسن يأمر به الولاية بالصحراء بالاعتناء بالمرابط محمد بن عبد الله القندوسي
24 جمادى الثانية 1304 / 20 مارس 1887:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله
الطابع السلطاني وبداخله الحسن بن محمد ابن عبد الرحمن الله وليه.

وبدأثرته:

ومن تكن برسول الله نصرته *** إن تلقه الأسد في آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الوري شرفا *** الله حافظه من كل منتقم

نأمر من يقف على شريف هذا المسطور، أبقاه الله غرة في جبين الأعصار والدهور، من عمالنا وولاية
أمرنا بالصحراء ونواحيها أن يستوصى خيراً بما سكه المرابط الأرضي، السيد محمد بن عبد الله، مقدم الزاوية
القندوسية ذات البركات الشهيرة والخيرات العظيمة، ويلاحظه مع إخوانه وأقاربه بعين البرور والتعظيم،
ويحملهم على عاتق التبجيل والتكريم، ويقدرهم ويعرف فضلهم، ويذب عن ساحة زاويتهم المذكورة،
ويحمي حماها عن مريد الترامي على المنحاشين إليها المتعلقين بجانبها المتمسكين بأذيالها، حتى تبقى بحول
الله رافلة بأهلها في حلل الاحترام، صاعدة في مراقي التوقير والإكرام، والسلام في 24 جمادى الثانية عام
1304هـ.¹⁷

16 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الأول، م س، ص. 87.

17 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثاني، م س، ص. 405.

جواب السلطان مولاي الحسن على رسالة المرابط محمد بن عبد الله القندوسي التي يهنئه فيها بمناسبة شفائه مما ألم به. ويؤكد هذا الجواب اعتناء السلطان بالشرفاء القنادسة ذوي الشهرة السائدة بالصحراء الشرقية وفي سائر المناطق المغربية 29 ربيع الثاني 1305هـ / 14 يناير 1888م:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الطابع السلطاني وبداخله

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

المرابط الخير الأرضي السيد محمد بن عبد الله القندوسي. وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وبعد، فقد وافى كتابك مهتئا بما منحنا الله به من الألفاظ الخفية فيما كان ألم بنا من تصرفات الأقدار الإلهية، وعلمنا ما أشرت إليه من مواظبتك على صالح الدعاء لنا في أوقات الخير ومظان الاستجابة، وصرنا من ذلك على بال. فالدعاء تقبله الله منك وجزاك خيرا ولا أراك ما يحزنك، إنه ولي ذلك بمنه وكرمه، آمين، وأما ما أشرت إليه في شأن أهل وجدة من كونهم يقطعون الماء إبان المصيف على أملاك زاويتكم حتى يبس جلها، فهذا نحن كتبنا لعاملهم في ذلك وأمرناه بالمتعين فيه، والسلام، وفي 29 ربيع 2 عام 1305.¹⁸

• رسالة من الحاجب السلطاني أحمد بن موسى البخاري إلى مقدم الزاوية القندوسية محمد بن عبد الله القندوسي يخبره بوصول موفديه إلى الحضرة الشريفة. وفي ذلك دلالة على التواصل المستمر بين السلطان وزوايا الصحراء الشرقية، كما هو الحال بالنسبة لزوايا الصحراء الساحلية المغربية. 27 صفر 1310 / 20 شتنبر 1892م

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

محبا الأرضي مقدم الزاوية القندوسية، السيد محمد بن عبد الله. وبعد، وصل كتابك بأنك وجهت ولدك وابن أخيك للحضرة العالية بالله، طالبا الوصية بهم خيرا، وصار بالبال. فقد وصلا وبمحل العناية أنزلا، وبمعهود إكرام مولانا وجزيل نواله عوملا، وبما يتعين من البرور والبشاشة قوبلا، حتى انقلبا بما أملاه من سيادة سيدنا ظافرين، وعلى المحبة، والسلام. في 27 صفر عام 1310هـ. أحمد بن موسى بن أحمد لطف الله به.¹⁹

18 - نفسه، الجزء الثاني، م س، ص. 445.

19 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثاني، م س، ص. 687.

ظهر السلطان مولاي عبد العزيز مجدد مقتضيات ظهير والده السلطان مولاي الحسن لفائدة كبير الزاوية القندوسية. 5 جمادى الأولى 1319 / 20 غشت 1901 م.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الطابع السلطاني وبداخله

عبد العزيز بن الحسن بن محمد الله وليه

وبدأته:

ومن تكن برسول الله نصرته *** إن تلقه الأسد في آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الورى شرفا *** الله حافظه من كل منتقم

جددنا بحول الله ذي القوة والحول، والعزة البالغة والطول، ما تضمنه كتاب سيدنا ومولانا الوالد، روح الله روحه وبرد ضريحه. بالإذن لماسكه كبير الزاوية القندوسية المحب الم رابط الأخير...]. في الإصلاح بين قبائل إيالتنا السعيدة وبين جوارهم، وإرشادهم إلى ما فيه دوام السكينة وحسن المعاملة، لما نعلمه من خيره وصلاحه، وشهرته في تلك الجهات بالحرص على المسلك الذي تحمد عاقبته. ولا شك أن ذلك من السعي المشكور والعمل المقبول المبرور، الذي ندب الله سبحانه إليه بقوله في كتابه: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾، تجديدا تاما، نأمر الواقف عليه من قبائل إيالتنا السعيدة أن يتلقوا إشارته بحسن القبول، ويسمعوا موعظته ويعملوا بما يرشدهم إليه فإن المؤمنين بخير ما داموا محافظين على رأي خيارهم وأفاضلهم. والله ولي التوفيق، والهادي بمنه إلى سواء الطريق، والسلام. في 5 جمادى الأولى عام 1319 هـ.²⁰

3. علاقة إمارة المؤمنين بالزاويا والرباطات والأشراف من أجل تقوية البعد الروحي وترسيخ العروة الوثقى بين الإمارة والمجتمع.

تركز هذه الدراسة على إبراز العناية الخاصة لسلطين وملوك الدولة العلوية الشريفة لأصول المدد الروحي والامتداد الصوفي المغربي في العمق الإفريقي انطلاقا من أقاليمنا الصحراوية، وجرّد مظاهر الاهتمام والرعاية لهذا الامتداد. وأثر ذلك في الوحدة الروحية والثقافية والسياسية والترابية للمملكة المغربية.

جواب السلطان مولاي الحسن على رسالة الم رابط محمد بن الحسين بن أهاشم يخبره فيه بإنعامه عليه بدار في الصويرة، وتمتيعه بما كان لوالده من مرتبة عند السلطان ويدل هذا الإنعام على تمتين العلاقات

20 - سيمو هبيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثالث، م س، ص. 819.

بين الربط الصحراوية والعرش المغربي، ومن المعروف أن أسرة أهاشم تحظى بنفوذ سياسي واقتصادي وروحي كبير في مناطق سوس والصحراء حتى تومبوكتو 10 ربيع الثاني 1303هـ / 16 يناير 1886م.

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الطابع السلطاني وبداخله

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

خديمنا الأرضي الم رابط السيد محمد بن الم رابط السيد الحسين أهاشم، وفقك الله؛ وسلام عليك ورحمة الله. وبعد، وصل كتابك طالبا تنفيذ دار لك بثمر السويرة المحروسة بالله، راغبا في إلحاقك بوالدك فيما له لدينا من عظيم المثابة، وإظهارها بذلك، وصار بالبال. فأنت عندنا في مقامه ومنزل في منزلته. سلك الله بك سبل الصواب وجعلك على قدمه وخير خلفه. وأما الدار فقد كتبنا لأمناء الثغر المذكور بتعيينها مناسبة لك ودفعها لك، وإعلامنا بها وبصفتها ومجاورها بعد، لنكتب لك بها ظهيرنا الشريف. والكتاب لهم بذلك يصلك، والسلام. في 10 ربيع الثاني عام 1303. ²¹

• ظهير للسلطان مولاي الحسن يسدل به أردية التوقير والاحترام على أهل زاوية تركز من قبائل تكنة. 23 شعبان 1303هـ / 27 مايه 1886م.

هذه السطور الشريفة ذات الظلال الوريقة الساطعة الأنوار، النافذة الحكم بإذن الله في الأنجاد والأغوار، بيد مسكتها أهل زوايا تركز من قبائل تكنة. ويتعرف منها أنا بأيد الله وحوله رفعنا محلهم رفعا ودفعنا عنهم الأيدي العادية دفعا، وأمرنا بتوقيرهم واحترامهم وتعظيمهم وإكرامهم، بحيث لا يظلمون ولا يهضمون، ما داموا إلى الخير والصالح والفضل ينتمون. لكن بشرط تحليهم بسمات الفضائل وتخليهم عن سفاسف الرذائل، وتسربلهم أردية المسكنة والصالح، والسعي في الخير والجد الدؤوب على سمت المروءة والهدنة في الآصال والغدو والرواح، والخروج من زمرة العوام وعدم حمل السلاح. نأمر الواقف عليه من كافة عمالنا وولاة أوامرنا العالية بالله بإعماله، وتنفيذ مقتضاه الشريف وعدم إهماله والوقوف عند حده وكماله، والسلام. صدر به أمرنا المعتر بالله ثالث عشر شعبان الأبرك من شهور عام ثلاثة وثلاث عشرة مائة 1303. ²²

• ظهير للسلطان مولاي الحسن يجرّد بمقتضاه ظهائر أسلافه التي تسدل أردية التوقير والاحترام على سكان أسا.

21 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الأول، م س، ص. 293.

22 - نفسه، الجزء الأول، ص. 375.

• لزاوية أسا مكانة خاصة في الصحراء المغربية، باعتبارها مركزا مهما للتعليم والتربية وترسيخ قواعد الإسلام وأخلاقه، وباعتبارها أيضا موقعا استراتيجيا يراقب الطريق الواصل بين سفوح جبال الأطلس الجنوبية وداخل الصحراء المغربية.

• والظهير يسقط عنها الجبايات، ويأمر بتوزيع زكواتهم وأعشارهم على ضعفائهم. 1 رمضان 1303هـ / 3 يونيو 1886م.

جددنا بأيد الله وحوله وعونه وطوله، لمسكته وصفاننا سكان زاوية أسى حكم ما بأيديهم من ظهائر سلفنا المقدسين برد الله مرقدهم وجعل في مقاعد الصدق مقاعدهم، المتضمنة للتحرير والتوقير وعدم التكليف بفتيل أو نكير، وأذنا لهم في تفريق زكواتهم وأعشارهم على ضعفائهم ومن استحقها من فقرائهم. وعليهم بتقوى الله تعالى ومراقبته. فنأمر الواقف عليه من كافة عمالنا وسائر ولاتنا بإعماله وإمضائه، والوقوف عند انتهائه، والسلام. صدر به أمرنا المعترز بالله في فاتح رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثمائة وألف.²³

• رسالة من الشرفاء أولاد مولاي الحبيب بالصحراء إلى السلطان مولاي الحسن يلتمسون فيها تمتيعهم بالصلة التي يستفيد منها أمثالهم من الشرفاء، كما تفيد باستقرار عناصر من الشرفاء من فاس بالمناطق الصحراوية وبانصهار الأنساب 2 ربيع الثاني 1305هـ / 18 دجنبر 1887م.

الحمد لله وحده

بعد تقبيل بساط مولانا أعزه الله، وأداء ما يجب لمقامه الشريف من التحية والإجلال والتعظيم، ينهى لشريف علم مولانا أبد الله ملكه أن الشرفاء أولاد مولاي الحبيب بن مولاي عبد المالك الزيزون، من يوم أرسلنا مولانا الجدد قدس الله روحه للصحراء، وترك أولاده بفاس، لم يقبضوا صلة مع أبناء عمنا الشرفاء. وقد أطلعنا بهذا مولانا أيده الله لينظر في أمرنا، ويسهم لنا معهم. كثر الله خير سيدنا وأدام به النفع. وهذا ما يجب به الإعلام في 2 ربيع الثاني عام 1305هـ.²⁴

• رسالة مرفوعة إلى السلطان مولاي الحسن في موضوع طلب تنفيذ بقعة أرضية لبناء زاوية كتنية في فاس طبقا للسياسة المتبعة من طرف زوايا الأقاليم الصحراوية بجنوب المغرب لإقامة فروع لها في شمال البلاد، صارت على هذا المنوال جماعة الطائفة الكتنية الصحراوية للحصول على قطعة أرض بمدينة فاس بإنعام سلطاني. وتبين هذه الرسالة بشكل جلي تعدد المسالك الرابطة بين الصحراء والأقاليم المغربية الأخرى. 17 ربيع الثاني 1308هـ / 30 نونبر 1890م.

23 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الأول، م س، ص. 381.

24 - نفسه، الجزء الثاني، ص. 439.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

يعلم سيدنا المحفوف بعناية واهب الأسرار، المعمر بوجوده مواطن ذكر الله في سائر القرى والأمصار، دامت أيامه مشرقة بأنوار الهداية والتوفيق، وهممه منشورة في الأنام بلوامع التصديق، أن جماعة الطائفة الكتتية قد ظهر لها بهذه الحاضرة وفور وانتشار، وتزايد في الاجتماع على من له تمييز فيهم من الأفراد الأخيار، وذكروا أن جميع البلاد لم تخل عن زاوية لهذه الطائفة، إلا هذه الحضرة الفاسية، مع أنها أم الأمصار الغربية التي هي أولى بذلك. وقد تشوفت أنفسهم لبناء زاوية يجتمعون فيها على ذكر الله، ووجد فيهم من يصير على ذلك ببقعة من بقاع جانب المخزن المتهدمة أو التي على السقوط، مما لا يرجى الانتفاع ببنائه في المستقبل، مؤملين من الله أن يشرح صدر سيدنا للإعانة على هذا العمل الجليل، ويجعل في صحيفته ثوابه الجزيل. فأجبناهم لما طلبوا. والنظر لعلي المقام، وعلى الخدمة والطاعة لمولانا، والسلام. في 17 ربيع الثاني عام 1308. عبد الله.²⁵

• رسالة الشيخ أحمد يكن بن محمد المختار باللعمش إلى السلطان مولاي عبد العزيز يلمس منه الإنعام عليه بزاوية في مراکش. محرم 1318هـ/ ماية 1900

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

هذا وإنه بسلام يسلم من جميع الآفات، وتحية تدوم بدوام الأوقات، من عبد ربه خديم سيدنا ومولانا أحمد يكن بن محمد المختار بن اللعمش، إلى خليفتنا وسلطاننا وأميرنا نخبة الأمراء، الموضوع لهم القبول في الأرض القائمين عن الأمة بالسعي في مصالحنا في النفل والفرض، السلطان مولانا عبد العزيز ابن مولانا الحسن، أبقي الله دولته محروسة بالعدل والإكرام، ما تعاقب الضياء والظلام، ومحفوفة بالنصر والظفر من الملك العلام. موجه عبدكم الضعيف ونائبكم ونائب والدكم المنيف، يطلب من عليا جودكم وكرمكم المبذول للمشروف والشريف إعطاء زاوية هناك بمراكش تنسب لنا ويأوي إليها من أتى من قبلنا من تجكانت، كما يطلب ذلك أمثالنا من أمثالكم. وحامله وكاتبه مهما تيسر له إتيانكم يأتيكم، ولا عنده غير الله وأنتم أطال الله لنا عمركم، آمين. الفقيه السيد عبد الله بن سيدي محمد النائب عنا في تلك الأمور في الغيب والحضور، إذ هو الذي أقمناه هناك وكيلا وحاملا لمكاتبتنا إلى حضر تكم الشريفة، والسيد الحاج محمد المختار الجكنيين. فليساعد سيدنا بمرغوبنا على عجل، أبقي الله سيادته ما بقي الأمل، وليتحف سيدنا الحاج محمد المختار بما يعينه زاد الله في عمره... آمين، والسلام. في المحرم من عام 1318هـ.²⁶

25 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثاني، م س، ص. 599.

26 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثالث، م س، ص. 789.

• ظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ يسدل به أردية التوقير والاحترام على شرفاء أهل زاوية الركيات، 15 شعبان 1325هـ / 23 شتنبر 1907.

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

الطابع السلطاني وبداخله عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد الله وليه ومولاه وبدائرتة:

ومن تكن برسول الله نصرته *** إن تلقه الأسد في آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الوري شرفا *** الله حافظه من كل منتقم

أبو بكر - عمر - عثمان - علي

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وخلد في الصالحات طيه ونشره، يستقر بيد ماسكيه المتمسكين بالله تعالى ثم به، الشرفاء أهل زاوية الركيات القاطنين في وادي نون والساقية الحمراء. ويتعرف منه بعون الله وأفضله أننا جددنا لهم كل ما بأيديهم من ظهائر سيدنا الوالد وغيره من أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم ونعم أشباحهم في دار السلام، وأقررناهم على ما تضمنته من التوقير والاحترام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، والرعي الجميل المستدام. فلا سبيل لمن يريد خرق عادة عليهم، أو يحدث زيادة أو نقصا في جانبهم، تجديدا تام الرسم نافذ الحكم، حسب الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل به ولا يجحد عن كريم مذهبه. صدر به أمرنا المعترز بالله تعالى في 15 شعبان الأبرك عام 1325هـ.²⁷

• ظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ يسدل به أردية التوقير والاحترام على زاوية الشرفاء السماليل بالصحراء، 1 رمضان 1325هـ / 8 أكتوبر 1907م.

الحمد لله صلى الله على سيدنا ومولانا محمد

الطابع السلطاني وبداخله عبد الحفيظ بن الحسن الله وليه

ظهيرنا هذا أعلى الله مناره، وجعل على مركز السعادة مداره، يستقر بيد أهل زاوية الشرفاء السماليل بناحية الصحراء. ويتعرف منه أننا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنتته، أقررناهم على ما عهد لهم من التوقير والاحترام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، إقرارا تاما مطلقا عاما. وعلى الواقف عليه من خدامنا وولاة أمرنا يعلمه ويعمل بمقتضاه، والسلام. صدر به أمرنا المعترز بالله في فاتح رمضان المعظم عام 1325هـ.²⁸

27 - نفسه، الجزء الثالث، م س، ص الثالث، ص. 969.

28 - سيمو بهيجة، الصحراء المغربية... الجزء الثالث، م س، ص. 973.

رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى الوزير محمد المقرئ يأمره بالعناية بالفقيه أحمد الشمس الشنكيطي المتوجه إلى الحج انطلاقاً من طنجة عناية منه به على غرار ما يقوم به السلطان تجاه الحجاج المغاربة في مناطق أخرى. 20 ربيع الثاني 1330هـ / 8 أبريل 1912.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الطابع السلطاني وبداخله

عبد الحفيظ بن الحسن وفقه الله

خديمنا الأرضي الأفلاح، وزير حضرنا الشريفة الأنصح، الطالب الحاج محمد المقرئ، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله. وبعد:

فإن الفقيه البركة اليد السيد أحمد الشمس الشنكيطي قد توجه قاصداً للنواحي الحجازية، بقصد أداء فريضة الحج والزيارة النبوية. وعليه، فإذا حل بطنجة وأنت بها، نأمرك أن تستوصي به خيراً، وتأخذ بيده فيما عسى أن يعرض له، وتكون منه على بال، حتى يركب بحراً بخير والسلام، في 20 ربيع الأول عام 1330هـ.²⁹

وخلاصة القول: إن هذه الدراسة تكرر القناعتين التاليتين:

الأولى: تعود إلى أننا مجبولون على حب وطننا ومسكونون بجاذبية الوطن - حسب عبد الهادي الشرايبي - من أقصى نقطة من الشمال فيه إلى أقصى نقطة بجنوبه حيث توجد صحراؤنا الغالية.

أما الثانية: فكون الصحراء المغربية تستمد أهميتها الاستراتيجية من كونها مصدر الذاكرة المغربية وأحد المكونات الأساس في بناء الذات الأنطولوجية للوطن.

لهذه الاعتبارات وأخرى فإن هذه الدراسة ركزت على أهمية مؤسسة إمارة المؤمنين في تلحيم المجتمع المغربي بكل مكوناته وجغرافيته، وخاصة الساكنة الصحراوية.

عيد العرش المجيد أصالة وتجديد

• ذ. ابراهيم الوافي

رئيس المجلس العلمي لإنزكان

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. لا يخفى ما لمناسبة عيد العرش المجيد من مكانة في قلوب المغاربة، وما يخصصها به من إجلال وتقدير، وما يرفونه لها من مختلف الأنشطة الثقافية والاجتماعية وغيرها، المعبرة عن إيلائهم هذه المناسبة ما تستحق من الاهتمام والعناية؛ لذلك فهي محل اهتمام مختلف الفئات الاجتماعية، التي دأبت على التطلع لحلول هذه الذكرى المجيدة، لجلوس مولانا أمير المؤمنين على عرش أسلافه المنعمين، وإعداد ما يناسبها من البرامج المتنوعة، للاحتفال بها احتفالا يكتسي صبغة خاصة من التعبير عن الأفراح والمسرات، والشعور المفعم بقيمة الحدث، والسعي في الرفع من شأنه وإشعاعه؛ ليصل صداه القريب والبعيد، إدراكا لمقصده الجليل، ومجده الأثيل، ورباطه المقدس النبيل، المتمثل في ثابت إمارة المؤمنين، الجامع لشمل المغاربة أجمعين، السائرين في ركب من ولاه الله تعالى أمرهم، وأطاعوه امتثالاً لأمر ربهم؛ القائل في محكم كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصِيعُوا اللَّهَ وَأَصِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾¹.

وهذا النداء الإلهي الموجه للذين آمنوا بأن يطيعوا الله ويطيعوا الرسول وأولي الأمر منهم، الوارد قبله الأمر بالوفاء بالأمانة وأدائها إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، ورد المتنازع فيه إلى الله ورسوله، هو تخصيص الخطاب بأهل الإيمان النجباء الكمل، الذين تحققوا مقاصد أوامر الله تعالى ونواهيه، لا سيما ما يتعلق منها بالشؤون الجليلة، والمقاصد النبيلة، التي تبنى عليها مصالح الدنيا والدين، ويستقيم بها أمر المسلمين، "وعلى ذلك أمر الملوك في الأمور، يريدون اشتراك الرعية وأهل المملكة في ذلك؛ كقوله سبحانه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾²، وقال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾³ ونحو ذلك." ⁴

1 - سورة النساء، الآية: 58.

2 - سورة النمل، الآية: 29.

3 - سورة النمل، الآية: 39.

4 - تأويلات أهل السنة للماتريدي (ت. 333هـ) (3: 230).

قال مكي بن أبي طالب: «واختار أهل النظر أن يكون خطابا لولاة أمور المسلمين، أن يؤدوا الأمانة بما ائتمنوا عليه من أمور المسلمين في أحكامهم، والقضاء في حقوقهم بكتاب الله، والقسم بينهم بالسوية، ويدل على صحة ذلك أن الله تعالى أمر المسلمين بطاعتهم بعد ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾⁵، فحضر الولاة على العدل والإنصاف بين المسلمين، وحضر المسلمين على طاعة الولاة.»⁶

وروي عن الإمام علي رضي الله عنه قوله: «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، ويؤدي الأمانة؛ فإذا فعل ذلك، فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا»⁷ قال إمام الحرمين: «ولا معنى لكون الإمام إماما؛ إلا أن طاعته واجبة»⁸ فإن من أسلمت له الأمة زمامها، وأسلمت له قيادها، وجبت طاعته عليها، في كل ما يستلزمه الأمر من جهتها، فذاك هو الحق الثابت المتعين، الذي لا يسوغ رده ولا إنكاره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾⁹ والمملكة المغربية الشريفة، كانت وما زالت بحمد الله تعالى ومنته، محافظة في تدبير أمرها وتصريف شأنها، على «ما تحفظ به الشريعة، تشييدا لركن الملك، الذي به تحفظ الضروريات الخمس، المتفق على رعايتها في جميع الشرائع: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال؛ لأن مصالح الدين والدنيا، مبنية على المحافظة عليها، بحيث لو انخرمت، لم يبق للدنيا وجود، من حيث الإنسان المكلف، ولا للآخرة من حيث ما وعد بها، فلو عُدِم الدين، عُدِم ترتب الجزاء المرتجى، ولو عُدِم الإنسان، لعدِم من يتدين، ولو عُدِم العقل، لارتفع التدبير، ولو عُدِم النسل، لم يمكن البقاء عادة، ولو عُدِم المال، لم يبق عيش»¹⁰.

ومن ثم كان ترسيخ أصالة ثابت إمارة المؤمنين، لحماية الملة والدين، هدفا رئيسا من أهداف التجدد والتجديد، وربط الفرع بالأصل التليد، احتراماً لما يدعو إليه الإسلام، الذي أوجب على الأمة مبايعة الإمام، اقتداء بفعل النبي ﷺ في بيعه الرضوان، وما فعله الصحابة الكرام في هذا الشأن، حتى نزلت الآية في تقريرهم وإطرائهم، وحسن الثناء على صنيعهم، وهي الآية المعروفة عند العلماء بآية: «أهل البيعة»¹¹ التي قال الله تعالى

5 - سورة النساء، الآية: 58.

6 - الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب القيرواني القرطبي، (2: 1364).

7 - معالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت. 510هـ)، (1: 650).

8 - غياث الأمم في التياث الظلم، لأبي المعالي عبد الملك الجويني (ت. 478هـ)، (ص: 323).

9 - سورة الأحزاب، الآية: 36.

10 - بدائع السلك في طبائع الملك، لمحمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، شمس الدين الغرناطي ابن الأزرقي (ت. 896هـ) ت. د. علي سامي النشار، (ص: 195). ط. 1، وزارة الإعلام - العراق.

11 - البرهان في أصول الفقه، لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني، (1: 239).

فيها: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذا يبايعوننا تحت الشجرة﴾؛¹² «فمن رضي الله عنه لم يدخل النار أبدا»¹³.

وتبعا لمقتضيات البيعة الشرعية، التي هي العقد المنظم للعلاقة بين الراعي والرعية، والضابط لتقاسم عبء المسؤولية، في ضوء ما نصت عليه الآيات القرآنية؛ التي منها قوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعوننا إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله فسنؤتيه أجرا عظيما﴾¹⁴؛ أي أنهم يبيعتهم إياك على المضي بهم قدما فيما يرضي الله تعالى، من إقامة الحق والعدل والإنصاف؛ إنما يبايعون الله، الذي يضمن لهم الجنة وحسن المآب، جزاء على وفائهم لك بما تعاهدوا به واستوثقوا؛

ومنها قوله تعالى: ﴿الذين ينفذون عهد الله من بعد ميثاقه ويفضون عهدا هم الخاسرون﴾؛¹⁵

ومنها: ﴿انكروا نعمت التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾؛¹⁶
ومنها: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتفون﴾؛¹⁷

ومنها قوله سبحانه: ﴿بل من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتفنين﴾؛¹⁸ ومنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾؛¹⁹

ومنها قوله عز من قائل: ﴿وبعهد الله أوفوا لعلكم تذكرون﴾.²⁰
ومن الأحاديث النبوية الشريفة: ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى

12 - سورة الفتح، الآية: 18.

13 - الهداية إلى بلوغ النهاية (11: 6954).

14 - سورة الفتح، الآية: 10.

15 - سورة البقرة، الآية: 26.

16 - سورة البقرة، الآية: 39.

17 - سورة البقرة، الآية: 176.

18 - سورة آل عمران، الآية: 75.

19 - سورة المائدة، الآية: 1.

20 - سورة الأنعام، الآية: 153.

أميري فقد عصاني»²¹. وفي لفظ مسلم: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»²². وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «... ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...»²³

و غير ذلك من الأحاديث الوافرة في هذا الباب، حتى قال فخر الدين الرازي في شأنها: «إن النبي ﷺ بالغ في الترغيب في طاعة الأمراء»؛ ونحن نقول: إن الأمر لا يتعلق بالمبالغة، بقدر ما يتعلق بالتأكيد على أمر يوشك أن تؤتي الأمة من قبله، إن لم يتداركها الله بلطفه، وهو عليه الصلاة والسلام حريص على أمته، المدافع عنها في الدنيا، والشفيع فيها في الآخرة،²⁴ ويخشى عليها فتنة التمزق وتشتت الكلمة.

وتبقى النصوص الشرعية المؤطرة للبيعة، حاکمة على كل مسلم ومسلمة، بضرورة الانخراط في امتثال طاعة من ولاه الله تعالى أمر عباده، وبسط يده في أرضه وبلاده، فالواجب على الجميع طاعته وموالاته، ومساندته في القيام بحقه، والوفاء بعهده، عن إيمان واقتناع، لا عن مدهانة ولا ارتياب، ولا ميل عنه إلى غيره ممن حضر أو غاب، تمسكا بأصل البيعة الشرعية، وإبراء للذمة بالوفاء بالعهد في السر والعلانية؛

على أن أداء هذا الواجب، والحرص على تعهده والوفاء به، لمن ولاه الله تعالى تدبير شأن أمته، وحماية دينها ودنياها، وتوفير الأمن والطمأنينة لها، يدخل في الامتثال لعبادة الله تعالى، والالتزام بأمره، فالطاعة والشكر تكون لله ولغير الله؛ لأن الطاعة امتثال، والشكر مكافأة، وأما العبادة فلا تكون إلا لله تعالى وحده دون سواه؛

فاتضح بذلك مفهوم الطاعة الذي ينبغي أن يبذله الجميع لأمر البلاد، المجمع على إسناد الأمر له في كل ناد، لا سيما وقد استقامت أمور الأمة كلها بحمد الله على يديه؟ فلم يبق لمشكك ما يسعى إليه؛ سوى التعجيل بالانخراط في الطاعة والنصرة، وإخلاص النصح والطاعة لأمر المؤمنين في المنشط والمكره، قياما بما يرضي الله تعالى، ودواما على ذلك إلى أن يلقي الله؛ لقوله ﷺ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدا من لصاعة، لفي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»²⁵.

21 - صحيح البخاري: كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. ح. 7137.

22 - صحيح مسلم: 33 - كتاب الإمارة، 8 - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية. ح. 32 - (1835).

23 - صحيح البخاري، ح. 7138.

24 - ينظر حديث أنس في الشفاعة بطوله في الصحيحين: البخاري ح. 7509، ومسلم ح. 325 - (193).

25 - صحيح مسلم، ح. 58 - (1851).

وهذا كله مبني على أن المقصد من الشريعة رعاية مصالح العباد على الإطلاق، وأن يكون عمل المكلف مبنيًا على نيته موافقة مقصد الشارع من التشريع؛ وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «إن قصد الشارع من المكلف، أن يكون قصده في العمل، موافقا لقصده في التشريع، والدليل على ذلك ظاهر من وضع الشريعة؛ [فهي] موضوعة لمصالح العباد على الإطلاق والعموم، والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، وأن لا يقصد خلاف ما قصد الشارع؛ ولأن المكلف خلق لعبادة الله، وذلك راجع إلى العمل على وفق القصد في وضع الشريعة، هذا محصول العبادة، فينال بذلك الجزاء في الدنيا والآخرة؛ وأيضا [فإن] قصد الشارع المحافظة على الضروريات، وما رجع إليها من الحاجيات والتحسينات، وهو عين ما كلف به العبد؛ فلا بد أن يكون مطلوبا بالقصد إلى ذلك، وإلا لم يكن عاملا على المحافظة؛ لأن الأعمال بالنيات، وحقيقة ذلك أن يكون خليفة الله في إقامة هذه المصالح بحسب طاقته»²⁶.

وهذا الذي قرره أصول التشريع برمتها، وسار عليه أهل الحل والعقد من العلماء السابقين واللاحقين هو عين ما دأب عليه أهل المغرب، في علاقتهم مع ملوكهم الأشاوس، منذ أن ذاقوا طعم الإسلام، ورضوا بالله ربا وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد نبيا ورسولا، فقد حرصوا على ارتضاء أحسن طريق، في مقوماتهم الدينية والدنيوية، وانتهجوا خير سبيل، فكانت بيعتهم دوما شرعية لا غبار عليها، مستندة إلى أصلها، بالانتساب والانسياب، وبالتوافق والتحاب، بين كافة مكونات المجتمع على ما فيه مصلحة البلاد والعباد؛ وقد قال العلماء في التحاكم للإمام الأعظم: إن رأي الإمام يحسم الخلاف، فيجب على الكافة اتباعه²⁷.

ومن ثم تأتي هذه الذكرى لتتويج المتفق عليه كل عام، وتؤكد الإجماع وتحكمه أيما إحكام، وترسخ الأصالة المديدة، وتجدد الآثار الحميدة، وتعبر عن ذلك الترابط المكين، بين مولانا أمير المؤمنين، وحامي حمى الملة والدين، وشعبه الأبي الأمين، سيرا على نهج الأخيار، نحو كل رقي وازدهار؛ فمن أدرك أصل هذا الأمر وتحققه، وعلم مقصده وغايته؛ وانتفى عنه الريب، فلا يركن إلى مخالفة المحسوم شرعا وعقلا؛ لتعلقه «بخلافة النبوة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا، وهو أمر واجب بالإجماع، وواجب بالعقل؛ لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاة، لكانوا فوضى مهملين، وهمجا مضاعين، وقد قال الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهلهم سادوا»²⁸

26 - الموافقات، للإمام الشاطبي (3: 23، 24).

27 - التلخيص في أصول الفقه، للجويني (3: 89).

28 - الأحكام السلطانية، للماوردي (ص: 15).

فإمارة المؤمنين، أساسٌ لانتظام المعاش، وفوز المعاد، وأمن البلاد والعباد، فما بعد هذه النورانية الجلية، من خلال ما تدعو إليه الشريعة الإسلامية من اتخاذ إمام أعظم يسوس الأمة، ويدبر شأنها، ويتولى أمرها، ويكفيها همها، إلا كما قال تعالى: ﴿بِمَاذَا بَعِدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ﴾²⁹.

وإذا كان رسول الله ﷺ الذي أجرى الله الحق على لسانه وحياً وعصمةً، وكلفه بتطبيق شريعة الإسلام وتبليغها كتاباً وسنة، وأوجب طاعته وجعلها من طاعته، وذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ يَصْعِدِ الرَّسُولَ فَوَدَّ أَخْطَاعَ اللَّهِ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾³⁰، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾³¹؛ فإن الخير كل الخير في اتباع هديه وسنته، ولا داعي لمخالفته، في أمر يتعلق بحماية المهج، وتقويم العوج، ألا وهو ثابت إمارة المؤمنين؛ فلا تطاول الثوابت، ما دامت الحجة قائمة على الجميع بداية ونهاية؛ قال تعالى: ﴿فَلْ قَلِيلٌ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ قَلَوْا شَاءَ لَهَذَا كُمْ أَجْمَعِينَ﴾³².

وقد أجاد الإمام الماوردي رحمه الله في مقدمة أحكامه السلطانية فقال: «إن الله جلت قدرته، ندب للأمة زعيماً خلف به النبوة، وحاط به الملة، وفوض إليه السياسة؛ ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع، فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة، وانتظمت به مصالح الأمة، حتى استثبتت بها الأمور العامة، وصدرت عنها الولايات الخاصة، فلزم تقديم حكمها على كل حكم سلطاني، ووجب ذكر ما اختص بنظرها على كل نظر ديني؛ لترتيب أحكام الولايات على نسق متناسب الأقسام، متشاكل الأحكام»³³.

وتبعه القاضي أبو بكر بن العربي مبرزاً أهمية الخلافة وفائدتها والحكمة منها قائلاً: «وفائدة ذلك وحكمته، أن الله سبحانه خلق الخلق في الجبلية أخفافاً، يتقاطعون تدابراً واختلافاً، ويتنافسون في لف الحطام إسرافاً، لا يبتغون فيه إنصافاً، ولا يأترون فيه برشد اعترافاً، فأمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل فيهم المملكة، وصرف أمورهم إلى تدبير واحد يزعمهم عن التنازع، ويحملهم على التألف من التقاطع، ويردع الظالم عن المظلوم، ويقرر كل يد على ما تستولي عليه حقاً، ويسوسهم في أحوالهم لطفاً ورفقاً، وأوقع في قلوبهم صدق ذلك وصوابه، وأراهم بالمعينة والتجربة صلاح ذلك في ابتداء الأمر ومآله، ولقد يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فالرياسة للسياسة، والمملك لنفي الملك، وجور السلطان عاما واحداً أقل إذاية من كون الناس فوضى لحظة واحدة، فأنشأ الله الخليفة لهذه الفائدة، والمصلحة على الملوك

29 - سورة يونس، الآية: 32.

30 - سورة النساء، الآية: 79.

31 - سورة الحشر، الآية: 7.

32 - سورة الأنعام، الآية: 150.

33 - الأحكام السلطانية لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت. 450هـ)، ص: 13. دار الحديث - القاهرة.

والخلفاء، كلما بان خليفة خلفه آخر، وكلما هلك ملك ملك بعده غيره؛ ليستتب به التدبير، وتجري على مقتضى رأيه الأمور، وكيف الله سبحانه به عادية الجمهور»³⁴.

وبكلام هذين العالمين الجليلين، المبني على منظور الشريعة ومقاصدها؛ تتضح المصلحة المنوطة بشأن البيعة الشرعية، وما يترتب عنها من استتباب الأمن، وجريان الأمور على مقتضى ما يراه أمير البلاد من تصريح للشأن وحسن التدبير، ولا التفات لمخالف إجماع أمته، المتعالي عن وعد ربه بجنته؛ لمن وفى بعهدته وبيعته؛ لأن باب السمع والطاعة للإمام؛ من أبواب اختبار المعتقد وتصحيح الالتزام، أساسه التسليم والانقياد، وإن أمر على الأمة أقلها منزلة؛ كما جاء في صحيح البخاري عن سيدنا أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل حبشي كأن رأسه زبيبة»³⁵.

علما بأن الوصف الوارد في هذا الحديث، لم يرد مورد التحقير والتنقيص؛ وإنما ورد مورد التناهي، في وجوب السمع والطاعة لمن يرى أنه أقل الناس درجة في التولي؛ بمعنى أنه إن وقع عليه إجماع الأمة، وجبت طاعته من غير ما تردد ولا ارتياب، رعيًا للمصلحة وسدا للذرائع؛ «وإلا لبطلت حجة الله على الخلق، بفقد حملتها، والدعاة إليها، والذابين عنها، ولما صح من خبر المعصوم، من عدم اجتماعها على ضلالة، ومن أنه لا يزال فيها طائفة ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله»³⁶.

ويستفاد مما تحرر وتقرر، أنه لا خير في الخروج عما أجمعت عليه الأمة في دينها ودنياها؛ لأنه من الخلاف غير المرضي المنهي عنه شرعا، والموقع في الحرج والزلل، والمخالفة في الاعتقاد والقول والعمل؛ لا سيما وأن النبي ﷺ، قد أوصى باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه الذي يقول فيه: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعيش منكم، فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة، وإن عبدا حبشيا، عضوا عليها بالنواجذ؛ فإنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما انقيد انقاد»³⁷ وعند البيهقي بلفظ: «المؤمنون هينون لينون، كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ استناخ على صخرة»³⁸.

34 - أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (2: 208).

35 - الجامع الصحيح للإمام البخاري: ح. 693.

36 - الخلافة للشيخ محمد رشيد رضا القلموني الحسيني (ت. 1354هـ) (ص: 112)؛ وفي سنن ابن ماجه وغيره، من حديث أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم». / سنن ابن ماجه (2: 1303). ح. 3950.

37 - مسند أحمد ط الرسالة (28: 367). ح. 17142. وقد تتبع طرقه وتخريجه محقق المسند الأستاذ شعيب الأرناؤوط.

38 - شعب الإبان للبيهقي ح. 8128.

ومن هنا ندرك أبعاد مناسبة الاحتفال بعيد العرش المجيد، المشتملة على الأصالة والتجديد، أصالة الدين، وتجديد بيعة المواطنين لأمر المؤمنين، الذي به تنتظم حياتهم، وتجتمع كلمتهم، وتتحد قوتهم، وتتواصل مودتهم مع من ولاه الله أمرهم، فهو حفظه الله تعالى ورعاه، يخطو بالبلاد خطوات رشيدة، نحو النماء ومدارج الرقي والازدهار، غايته أن ينعم المغاربة كافة بالسعادة والهناء، داخل وطنهم وخارجه، فهو يستشعر أحوالهم، ويبادر إلى إصلاح شأنهم، وإمدادهم في السراء والضراء، وتلك جوانب من أخلاقه العالية، التي تشع من سيرته الغالية، فعيد عرشه المجيد، فرصة لإبراز شعبه ما يكره له من الحب والتقدير والاحترام، من خلال تجديد الولاء، والفرحة التي تعم كل الأرجاء، شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، كما تمتد إلى خارج الوطن؛ بما تشهده الجالية والسفارات المغربية في الدول الشقيقة والصديقة، من احتفال بالذكرى، لما لها من وزن خاص، ذي صلة بتربع مولانا محمد السادس حفظه الله ورعاه، وسدد إلى المعالي خطاه، على عرش أسلافه المنعمين، ساعيا سعيه الدؤوب، وجهده الجهد، في البناء والتشييد، فضلا عن صيانة وحدة الأمة وجمع كلمتها، ورعاية مصالحها ولم شملها، والدفاع عن حوزتها، وحماية بيضتها، والانتصاف لمستضعفيها، والسهر على استيفاء حقوقها، وإيفائها لمستحقيها، زاده الله عزاء وسؤددا، ونصرا ومددا، وحفظا وسندا بمنه وكرمه آمين، والحمد لله رب العالمين.

إمارة المؤمنين والبيعة الشرعية

ذ. محمد اوالسو

رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم صفرو

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. وبعد: فيجمع هذا المقال جل ما نشره العلماء من عناية الدين بإمارة المؤمنين، المنوطة بها سياسة الدنيا وحراسة الدين، مع ذكر ما استنبطوه من كتاب رب العالمين وحديث رسوله النبي الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى يوم الدين.

وقد جعلته في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

المقدمة في تعريف العلماء لإمارة المؤمنين.

المبحث الأول: إمارة المؤمنين عماد ثوابت الوطن والدين.

المبحث الثاني: البيعة الشرعية معناها ومبناها.

المبحث الثالث: إمارة المؤمنين أساس الاستقرار والاستمرار.

مقدمة:

تعدّ إمارة المؤمنين الحصن الحصين للوطن والدين، واستمراراً للإمامة الدينية حماية لشؤون الدين والدنيا، فهي من مفاخرنا المغربية، وخصائصنا الحضارية، وهي منبع أعجادنا في الماضي والحال والمآل. فمنذ بيعة العقبة الأولى والثانية - كما ثبت في السيرة النبوية - انطلقت في الإسلام الولاية العامة النبوية مؤصلة لإمارة المؤمنين التاريخية القائمة على البيعة الشرعية.

ففي سياق عناية الوحي بإمارة المؤمنين كتاباً وسنة نلفي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصِيعُوا اللَّهَ وَأَصِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾¹.

1 - سورة النساء، الآية: 58.

فأمر بطاعته، وثنى بطاعة رسوله ﷺ، وثالث بطاعة أولي الأمر. ومن قوله تعالى: ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ جاء وصف أمير المؤمنين؛ إذ القاعدة: أن من قام به وصف اشتق له منه اسم.

وفي السنة النبوية أحاديث شريفة تتناول مكانة أمير المؤمنين في الدين والدنيا.

فقد أخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه أكرمه الله...» الحديث.² وهذا الحديث أفرد به بعض علماء المغرب بالتأليف.

وفي رواية أخرى أكثر تفصيلاً عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أكرم سلطان الله في الدنيا، أكرمه الله يوم القيامة...» الحديث.³

وفي مسند البزار عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده.⁴

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها، إنما السلطان ظل الله في الأرض، ورحمه في الأرض».⁵

وقد تحدث العلماء عن هذا الثابت الأصيل من ثوابتنا الدينية، وهو الركن المتين من أركان الاستقرار، والأساس المكين للاستمرار، فبينوا فوائده ووضحوا خصائصه وقواعده، وأظهروا مزاياه وخبرائده. فقربوا نواصره وشوارده.

ولمزيد من العناية أفردوه بالتأليف ضمن ما يعرف بالأحكام السلطانية، فبينوا حقوق الراعي على الرعية وكل ما يترتب على فريضة البيعة الشرعية.

المبحث الأول: إمامة المؤمنين عماد ثوابت الوطن والدين

اهتم علماءنا بإمامة المؤمنين أيما اهتمام منذ الأزمنة الأولى لتدوين العلوم باعتبارها مركز الثوابت الدينية، إذ هي الحصن الحصين لباقي الثوابت، فنجد مؤلفات الأئمة سادة الأمة من علماء العقيدة يتحدثون عن إمامة المؤمنين ضمن كتب العقائد، وذلك لأمرين:

2 - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 6/ 17 برقم 7373. دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 1410هـ. تح: محمد السعيد بسيوني زغلول.

3 - مسند الإمام أحمد بن حنبل (مسند أبي بكرة)، برقم: 20434.

4 - مسند البزار، حديث: 5383. وهو في مسند الشهاب مختصراً، 1/ 201. مسند الشهاب محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي. مؤسسة الرسالة - بيروت ط: 2، 1407هـ - 1986م. تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

5 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، 8/ 281 (باب فضل الإمام العادل)، الحديث رقم: 16650.

1. لإظهار أنها أساس العمل بمقتضيات الإيمان وما يتصل به من الأحكام العملية والسلوكية.
2. للرد على بعض المغالطات من بعض الفرق الكلامية التي تحدثت عن الإمامة العظمى بما لا يصح علماً ولا منهجاً.

ولاستشراف بعض هذه الجهود نتناول إمارة المؤمنين تصوراً وتصديقاً، تقييماً وتعليقاً وتحقيقاً.

المطلب الأول التعريف اللفظي لإمارة المؤمنين:

«إمارة المؤمنين» و«الإمامة العظمى» مصطلحان وحقيقتان شرعيتان مترادفتان، تناولهما الفقهاء وعلماء الكلام والمؤرخون على السواء.

قال ابن خلدون: «تسمى خلافة وإمامة، والقائم بها خليفة وإماماً. [وسماه المتأخرون سلطاناً...]. فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والافتداء به، ولهذا يقال: الإمامة الكبرى»⁶.

فإمارة المؤمنين حقيقة شرعية ذات مدلول عند أهل الشرع، نشأ هذا اللقب الشرعي في زمن الإمام عمر رضي الله عنه بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي ذلك يقول الألويسي رحمه الله تعالى:

«وقالت الصحابة لأبي بكر: خليفة رسول الله، وبذلك كان يدعى إلى أن توفي، فلما ولي عمر قالوا: خليفة خليفة رسول الله فعُدل عنه اختصاراً إلى أمير المؤمنين»⁷.

وأشار ابن خلدون إلى سبب التسمية وأول من دعا الإمام عمر رضي الله عنه بلقب أمير المؤمنين قائلاً: «واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به».

يقال: إن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش... إلى أن قال: ... وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمر المؤمنين...⁸ والوصف بلقب الأمير ثابت منذ زمن رسول الله ﷺ بمدلول أخص مما ذكر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»⁹.

6 - مقدمة ابن خلدون، 2/ 564.

7 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألويسي، 12/ 179.

8 - يراجع مقدمة ابن خلدون، 2/ 613. تحقيق علي عبد الواحد وافي. ط: دار نهضة مصر.

9 - أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، 9/ 61. ط: دار طوق النجاة.

المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي لإمارة المؤمنين

تحدث علماء الكلام عن الإمامة العظمى في كتب العقائد، كما تحدث بعض الفقهاء عنها وعن تفاصيلها في كتب الفروع، وبين هذين المنهجين ناقش العلماء موقع البحث العلمي في إمارة المؤمنين، أهو من مباحث علم الكلام، أو من مباحث الفقه؟

ومن ذلك ما بينوه من نصوص بعضهم الآتية:

أشار التفتازاني في شرح المقاصد إلى أنها من الفقه ثم قال: «وقد ذكر في كتبنا الفقهية أنه لا بد للأمة من إمام يحيي الدين، ويقيم السنة، ويتصف للمظلومين، ويستوفي الحقوق ويضعها مواضعها»¹⁰.

ونقل العلامة سيدي عبد القادر الفاسي رحمه الله في «الأجوبة الحسان» أن مباحث الإمامة من الفقهيات، لكن لما زعمت الإمامية وبعض المعتزلة ما زعموا وشاع بين الناس في باب الإمامة اعتقادات فاسدة، ومالت فرق أهل البدع والأهواء إلى تعصبات باردة، تكاد تفضي إلى رفض كثير من قواعد الإسلام ونقد عقائد المسلمين والقدح في الخلفاء الراشدين، بوب عليها في علم الأصول لبيان أنه لا يجب شيء في أحكام التكليف بدون الشرع، وألحقت تلك المباحث بالكلام، وأدرجت في تعريفه عونا للقاصرين وصونا للأئمة المهتدين عن مطاعن المبتدعين.

على أن ابن عرفة قال: حديث «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»¹¹. وحديث: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»¹² يشير لكونه من المعتقدات.¹³

وفي مختصره الفقهي قال: «وحكم ثبوت الإمامة في علم الكلام والحديث»¹⁴. وهو كاف في ثبوت ما نقل عنه.

من أقوال العلماء في تعريف إمارة المؤمنين:

10 - شرح المقاصد، للسعد التفتازاني، 2/ 271.

11 - أخرجه مسلم في صحيحه 3/ 1478 (باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر) حديث 1851، محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. وغيره.

12 - أخرجه مسلم في صحيحه 3/ 1476 (باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر) حديث 1848، محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. وغيره.

13 - الأجوبة الحسان في الخليفة والسلطان، أو رسالة في الإمامة العظمى لسيدي عبد القادر الفاسي، ص: 141. تحقيق المهدي المصباحي، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية.

14 - المختصر الفقهي لابن عرفة 10/ 173. تحقيق حافظ عبد الرحمن محمد خير.

قال الماوردي رحمه الله تعالى:

الإمامة: «موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا».¹⁵

وبمثل ذلك عبر ابن خلدون رحمه الله بقوله: «فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به».¹⁶

وجاء في كلامه أيضا أنها «نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به».¹⁷

وفي تعبير الماوردي بحراسة الدين، وتعبير ابن خلدون بحفظ الدين، دليل على أن الدين محل أطماع فرق وجهات تحرفه وتستغله وتؤوله وفق مصالحها الخاصة، وهم الغالون والجاهلون والمبطلون كما في الحديث المشهور على الألسنة.

وفي الغياثي: «الإمامة رئاسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا».¹⁸ وقال اليفرنى في «شرح البرهانية في العقيدة الأشعرية»: الإمامة عبارة عن رئاسة في الدين والدنيا عامة لشخص من الأشخاص. وقيل: هي عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة».¹⁹ وهذا الذي قاله تضمن ردا على الآمدي فيما رجحه واختاره.

وجاء في شرح المقاصد:

«الإمامة رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وبهذا القيد خرجت النبوة، وبقيد العموم مثل القضاء والرئاسة في بعض النواحي، وكذا رئاسة من جعله الإمام نائبا عنه على الإطلاق فإنها لا تعم الإمامة».²⁰

والإشارة إلى خروج القضاء بقيد العموم هو ما سلكه ابن عرفة في تعريفها؛ إذ قال في المختصر الكلامي: «الأقرب أنها صفة حكمية توجب امتثال مستطاع أمر موصوفها في غير منكر عموما، فيخرج القضاء لخصوصه بإخراج أحكام الحروب والعطايا ونحوهما».²¹

15 - الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 63. تحقيق القاضي نبيل عبد الرحمن حياوي، ط: دار الأرقم، بدون تاريخ.

16 - مقدمة ابن خلدون، 2/ 563.

17 - مقدمة ابن خلدون، 2/ 564.

18 - غياث الأمم في التياث الظلم، لإمام الحرمين الجويني، ص: 55.

19 - شرح البرهانية لليفرني، 3/ 1236. تحقيق: جمال علال البختي، نشر الرابطة المحمدية للعلماء، 1438هـ/ 2017م.

20 - شرح المقاصد، للسعد التفتازاني، 2/ 272.

21 - المختصر الكلامي، لابن عرفة، ص: 1030. ط: دار الضياء، تحقيق: نزار حمادي.

ونقل التاودي بن سودة عن المتيطي في النهاية أنها: «رئاسة في الدين والدنيا عامة لشخص واحد»²².
 مما سبق يتبين أن إمارة المؤمنين صفة شرعية قائمة على حفظ الدين وسياسة الدنيا، ولذلك فهي من
 مفاخر المغاربة منذ أكثر من اثني عشر قرناً تمثل السند الشرعي التاريخي للمغاربة وصلة وصل لهم بالبيعة
 النبوية التاريخية منذ بيعة العقبة الأولى والثانية.
 وبعد ما ذكر من التعاريف المتضمنة لحقيقة إمارة المؤمنين ومكانتها الشرعية وضرورتها في الاستقرار
 الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، نتناول قول العلماء في حكم إمارة المؤمنين وفق ما ذكره
 العلماء من ذلك..

من أقوال العلماء في حكمها:

إمارة المؤمنين فريضة شرعية وواجبة باتفاق العلماء المعبرين، إذ هي أساس الاستقرار والاستمرار،
 وفي ظلها يعبد الله بالاختيار، وفيما يلي بعض أقوال لعلماء الأمصار وفقهاء الأقطار باختلاف الأعصار:
 قال الماوردي: «وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع»²³.
 ومعلوم أن الإجماع حجة قطعية عند علماء الأصول، وخرقه حرام كما نص عليه غير واحد، وهو
 يستلزم وجوب البيعة الشرعية كما سيأتي.
 وقال العلامة أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير رحمه الله:
 وأمر الله جميع الأمة = بالسمع والطاعة للأئمة
 فكان أمره على الإلزام = فوجبت إقامة الإمام²⁴
 وقال الإمام القرافي رحمه الله تعالى: «وأن نصب الإمام للأمة واجب مع القدرة وأنه موكول إلى أهل
 الحل والعقد دون النص وأنه من فروض الكفاية»²⁵.

المطلب الثالث: إمارة المؤمنين عماد الدين والوطن

نظراً لمكانة إمارة المؤمنين وأثرها في حياة الناس وضرورتها للاستقرار والاستمرار، حتى قال بعض
 أهل العلم: إن مبايعة الإمام واجبة عقلاً على ما هو مفصل في كتب المذاهب الكلامية، فإن النبي ﷺ بين
 مكانتها الدينية والدينية في جملة من الأحاديث النبوية منها:

22 - شرح التاودي للأمية الزقاق بحاشية: مواهب الخلاق، لأبي الشتاء الصنهاجي. 1/ 82. ط: الأمانة، الرباط، عام: 1375هـ / 1955م.
 23 - الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 63. تحقيق القاضي نبيل عبد الرحمن حياوي. ط: دار الأرقم بدون تاريخ.
 24 - التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، ليوسف بن موسى الضرير، ص: 236. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية 1435هـ / 2014م.
 25 - الذخيرة للقرافي 13 / 234.

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه أكرمه الله...» الحديث²⁶.

وعن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها، إنما السلطان ظل الله ورحمه في الأرض»²⁷.

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أكرم سلطان الله في الدنيا، أكرمه الله يوم القيامة،...» الحديث²⁸.

وفي مسند البزار عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده»²⁹.

ومن هنا كذلك يعلم أن محبة أمير المؤمنين واجبة شرعاً، إذ كل من وجبت طاعته وجبت محبته.

المبحث الثاني: البيعة الشرعية معناها ومبناها

المطلب الأول: معنى البيعة

بما أن البيعة الشرعية عنها تنشأ إمارة المؤمنين اقتداء ببيعة النبي ﷺ كما في مصادر السيرة النبوية وما بعد ذلك من بيعة الخلفاء... فإن مما نعتز به في هذا البلد الأمين التمسك بهذا الإرث النبوي الذي سار عليه أئمتنا منذ قرون.

ولكون البيعة سبباً شرعياً لإمارة المؤمنين تحدث العلماء عن معناها ومبناها:

قال ابن الأثير في معنى البيعة بعد إirاده حديث: «ألا تبايعوني على الإسلام؟»: «هو عبارة عن المعاقدة عليه والمعاهدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره»³⁰. وقال ابن خلدون: «البيعة: هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل

26 - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 6/17 برقم 7373 ط: دار الكتب العلمية - بيروت ط: 1410 تح: محمد السعيد بسيوني زغلول

27 - السنن الكبرى للبيهقي 8/162 مجلس دائرة المعارف النظامية الكاتبة في الهند ببلدة حيدر آباد ط: الأولى - 1344 هـ.

28 - مسند الإمام أحمد بن حنبل (م سند أبي بكرة) برقم: 20434.

29 - مسند البزار حديث: 5383 وهو في مسند الشهاب مختصر 1/201: مسند الشهاب محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ط: 2، 1407 هـ - 1986 م تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

30 - النهاية في غريب الحديث مادة: ب ي ع.

البائع والمشتري، فسمي بيعة، مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي. هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع، وهو المراد في الحديث في بيعة النبي ﷺ ليلة العقبة وعند الشجرة، وحيثما ورد هذا اللفظ، ومنه بيعة الخلفاء.³¹

وقال القرطبي في شرح مسلم: «... وذلك أن المبايع للإمام يلتزم أن يقيه بنفسه وماله، فكأنه بذل نفسه وماله لله تعالى، وقد وعد الله تعالى على ذلك بالجنة، فكأنه حصلت له المعاوضة، فصدق على ذلك اسم البيع والمبايعة...» إلى أن قال: «... وهذا أحسن ما قيل في المبايعة».³²

المطلب الثاني: البيعة الشرعية فريضة وهي عهد الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بعهدهم إنا عاهدناهم ولا تنقضوا أيمانهم بعهدهم كما وفاء جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾.³³

جاء في تفسير ابن جرير رحمه الله: قال: «أنزلت هذه الآية في بيعة النبي ﷺ».³⁴
وقال الألوسي في تفسيره: «وظاهره أنها في البيعة على الإسلام مطلقاً، فالمراد بعهد الله تلك البيعة كما نص عليه غير واحد».³⁵

قال صاحب التراتيب: «وقد عظم الله شأن البيعة وحذر من نكثها، فقال عز وجل: ﴿إن الذين يبايعوننا إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً﴾».³⁶ ³⁷

وترجم البخاري: باب كيف يبايع الإمام الناس؟ قال العلامة ابن حجر رحمه الله: «المراد بالكيفية الصيغ القولية لا الفعلية، فذكر فيها البيعة على السمع والطاعة...»³⁸

قال العلامة أبو العباس القرطبي في المفهم: «ثم هي واجبة على كل مسلم لقوله ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»³⁹. غير أنه من كان من أهل الحل والعقد والشهرة فبيعته بالقول والمباشرة

31 - مقدمة ابن خلدون 2/ 589، تحقيق علي عبد الواحد وافي.

32 - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي، 4/ 44، ط: السابعة لدار ابن كثير، 1438هـ/ 2017م.

33 - سورة النحل، الآية: 91.

34 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، 17/ 281، تح: شاكر.

35 - روح المعاني، للألوسي، 7/ 457.

36 - سورة الفتح، الآية: 10.

37 - تراجع التراتيب الإدارية، للكتاني، 1/ 406. ط: نظام يعقوبي الخاصة، تح: محيي الدين علي نجيب.

38 - فتح الباري، لابن حجر، 15/ 104. دار الفكر، 1415 هـ/ 1995م. والتراتب الإدارية لعبد الحي الكتاني، 1/ 406، ط: نظام يعقوبي الخاصة، البحرين، اعتنى به محيي الدين علي نجيب.

39 - سبق تخريجه.

باليد إن كان حاضرا، وبالقول والإشهاد عليه إن كان غائبا، ويكفي غيره أن يعتقد دخوله تحت طاعة الإمام، ويسمع ويطيع له في السر والجمهور، ولا يعتقد خلافا لذلك فإن أضمره فمات ميتة جاهلية لأنه لم يجعل في عنقه بيعة.⁴⁰

وبما أن البيعة سبب أساسي للوحدة والقوة فإن القرآن الكريم تناول الإشارة إلى ذلك المعنى بذكر لفظ اليد مرادا منه القوة والنصرة على منهج التنزيه عند أئمة الأمة من الأشاعرة المحققين، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاطِيعُوا أَئِمَّةَ الْمَدِينَاتِ وَالْمُحَرَّمِينَ﴾.⁴¹

قال ابن جرير الطبري في بعض ما ذكره من معنى الآية: «قوة الله فوق قوتهم في نصرته رسول الله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نصرته على العدو».⁴²

وجوب الطاعة للإمام:

قال الفقيه ابن رشد الجدي: وفرض لهم - أي: للأمرء - على الناس التسليم، وبذل السمع، والطاعة، والانقياد. ثم استدل بآيات منها قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.⁴³ ثم قال رحمه الله: «فقرن طاعته بطاعة رسوله وبطاعة أولي الأمر من عباده».⁴⁴

وقال الماوردي: «قال الله - عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾».⁴⁵

قال: «ففرض علينا طاعة أولي الأمر فينا».⁴⁶

قال الإمام النووي: «قال العلماء: المراد بأولي الأمر من أوجب الله طاعته من الولاة والأمرء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم».⁴⁷

وبوب البخاري في صحيحه: «باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وعلق عليه الحافظ ابن حجر بقوله: في هذا إشارة من المصنف إلى ترجيح القول الصائر إلى أن

40 - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، 4/ 44. دار ابن كثير (بصرف). ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالخطاب الرعيني المالكي (المتوفى: 954هـ) 6/ 278، دار الفكر، ط: 1412هـ - 1992م.

41 - سورة الفتح، الآية: 10.

42 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، 22/ 210، تح: شاكر.

43 - سورة النساء، الآية: 58.

44 - المقدمات الممهدة، لابن رشد الجدي، 2/ 254 (بصرف). ومناهج التحصيل، للرجاجي، 8/ 57.

45 - سورة النساء، الآية: 58.

46 - الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 16، ط: دار الحديث - القاهرة.

47 - شرح النووي، لصحيح مسلم، 12/ 223.

الآية نزلت في طاعة الأمراء، خلافا لمن قال: نزلت في العلماء. وقد رجح ذلك أيضا الطبري... وقال ابن عيينة: سألت زيد بن أسلم عنها ولم يكن بالمدينة أحد يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله فقال: اقرأ ما قبلها تعرف فقرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾⁴⁸ الآية. فقال: هذه في الولاية.⁴⁹

ومعلوم أن الأمر يدل على الوجوب وهو حقيقة فيه عند الجمهور من علماء الأصول.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «ألا كلكم راع....»⁵⁰ الحديث.

قال المهلب: «هذا يدل على وجوب طاعة السلطان وجوبا مجملا؛ لأن في ذلك طاعة الله وطاعة رسوله، فمن ائتمر لطاعة أولي الأمر لأمر الله ورسوله بذلك، فطاعتهم واجبة فيما رأوه من وجوه الصلاح»⁵¹.

قال الحافظ ابن حجر: «ووقع عند أحمد وأبي يعلى والطبراني من حديث ابن عمر، قال: كان رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال: «ألستم تعلمون أن من أطاعني فقد أطاع الله وأن من طاعة الله طاعتي؟ قالوا: بلى نشهد. قال: فإن من طاعني أن تطيعوا أمراءكم». وفي لفظ: أثمتكم...»⁵² ثم قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث وجوب طاعة ولاية الأمور...»⁵³

وقال أبو الحجاج الضرير، وهو من شيوخ القاضي عياض:

وأمر الله جميع الأمة = بالسمع والطاعة للأئمة

فكان أمره على الإلزام = البيت⁵⁴

وقال القرافي رحمه الله: «وتجب طاعة الأئمة وإجلالهم...»⁵⁵

قال الرجراجي: «ومن عصى إسناده وتعدى حدوده»⁵⁶ وهذا يستلزم وجوب الطاعة لأمر المؤمنين.

48 - سورة النساء، الآية: 57.

49 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، 13/ 111، ط: دار المعرفة، بيروت باختصار.

50 - أخرجه البخاري في صحيحه، (باب الجمعة في القرى والمدن)، 5/ 2، حديث رقم: 893.

51 - شرح صحيح البخاري، لابن بطال، 8/ 209.

52 - مسند الإمام أحمد، 9/ 490، حديث رقم: 5679. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط: 2، مؤسسة الرسالة، 1420هـ، 1999م.

ومسند أبي يعلى 9/ 340، حديث رقم: 5450. مسند أبي يعلى الموصلي التميمي، ط: 1 - دار المأمون للتراث - دمشق، 1404هـ - 1984م. تحقيق حسين سليم أسد.

53 - فتح الباري لابن حجر، ج 15، ص: 5.

54 - التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، للضرير، ص: 236.

55 - الذخيرة للإمام القرافي، 13/ 234.

56 - مناهج التحصيل، للرجراجي، 8/ 57.

وقال الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَيْمَانَكُمْ وَلَا حُلَا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَكُوفُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدَتْكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁵⁷: «... والمراد من السوء العذاب الدنيوي؛ من القتل والأسر والنهب والجلاء، وغير ذلك مما يسوء، ولا يخفى ما في ﴿وَتَكُوفُوا﴾ من الاستعارة، بما صَدَدَتْكُمْ بسبب صدودكم وإعراضكم، أو صد غيركم ومنعه عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان، فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره يتبعه فيها مَنْ بعده من أهل الشقاء والإعراض عن الحق فيكون صاددا عن السبيل»⁵⁸.

قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. الآية.⁵⁹ قال العلامة ابن عرفة: «عبر بـ «إن» دون «إذا» لكرهه الشيء والتنازع والخطاب بالتنازع لا يصح أن يكون للمأمورين؛ لأنهم أمروا بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر فلا يقع بينهم نزاع إذا أطاعوا أولي الأمر...»⁶⁰

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: ولاية أموركم، وهم الأمراء، قال ذلك أبو هريرة، وابن عباس وغيرهما.⁶¹ فأمر بطاعته عز وجل أولا، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانيا فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثا، على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم.⁶²

عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾⁶³، قال: هم الأمراء.⁶⁴

وفيما يلزم الرعية للخليفة وهو أمران:

الأول: الطاعة، قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾⁶⁵. فأمر بطاعة أولي الأمر وهم ولاية الأمور على ما ذهب إليه كثير من المفسرين. والإمام هو أعظم ولاية الأمور لعموم ولايته فهو أحق بالطاعة وأجدر بالانقياد لأوامره ونواهيه....

57 - سورة النحل، الآية: 94.

58 - روح المعاني، للألوسي، 7/ 460.

59 - سورة النساء، الآية: 58.

60 - تفسير ابن عرفة 2/ 35. ط: دار الكتب العلمية، 2008م.

61 - الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب القيسي، 2/ 1369.

62 - تفسير القرطبي، 5/ 259.

63 - سورة النساء، الآية: 58.

64 - تفسير الطبري، 8/ 497.

65 - سورة النساء، الآية: 58.

الثاني: المعاضدة والمناصرة في أمور الدين، وجهاد العدو، قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾⁶⁶. ولا أعلى من معاونة الإمام على إقامة الدين ونصرته...⁶⁷

المبحث الثالث: إمامة المؤمنين أساس الاستقرار والاستمرار

أكتفي هنا بنص جامع مفيد، متضمن لكل معنى سديد، حقق الغاية وبلغ النهاية، فأصل الأفكار وحقق الأنظار، إنه نص أحد كبار خبراء السياسة الشرعية من خلال فوائده الغياثية من كتابه «غياث الأمم في التياث الظلم»، وهو الإمام الجويني، وقد اهتم المالكية بكتبه لتضمنها آراء الإمام الأكبر المالكي الباقلاني.

يقول الإمام الجويني في الغياثي: «أصحاب رسول الله ﷺ رأوا البدار إلى نصب الإمام حقا، وتركوا بسبب التشاغل به تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه، مخافة أن تتغشاهم هاجمة محنة، ولا يرتاب من معه مسكة أن الذب عن الحوزة والنضال لحفظ البيعة محتوم شرعا، ولو ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع، ولا يزعمهم وازع، ولا يردعهم عن اتباع خطوات الشيطان رادع، مع تفنن الآراء، وتفرق الأهواء، لتبتر النظام، وهلك الأنام، وتوثب الطغام والعوام، وتحزبت الآراء المتناقضة، وتفرقت الإرادات المتعارضة، ومملك الأردلون سراة الناس، وفضت المجامع، واتسع الخرق على الراقع، ونشبت الخصومات، واستحوذ على أهل الدين ذوو الغرامات، وتبددت الجماعات، ولا حاجة إلى الإطناب بعد حصول البيان، وما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن»⁶⁸.

وقال العز بن عبد السلام في قواعده: «ولولا نصب الإمام الأعظم لفاتت المصالح الشاملة، وتحققت المفاسد العامة ولاستولى القوي على الضعيف، والدنيء على الشريف، وكذلك ولالة الإمام فإنه لا يتم إلا بالاستعانة بهم للقيام بمصالح المسلمين، وكذلك الحكام لو لم ينصبوا لفاتت حقوق المسلمين ولضاعت أموال الغيب والصبيان والمجانين»⁶⁹.

وبقول ابن عبد السلام نختم مع الصلاة والسلام على سيد الأنام سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيام.

66 - سورة المائدة، الآية: 3.

67 - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، (المتوفى سنة 821هـ)، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط: مطبعة حكومة الكويت - الكويت، ط: الثانية، 1985م.

68 - غياث الأمم في التياث الظلم، ص، 23، بتصرف يسير.

69 - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، 58/2.

إمارة المؤمنين أساس الاستقرار الروحي والإشعاع الديني في المغرب وباقي البلدان الإفريقية

ذ. بدر الدين الحميدي

أستاذ بكلية الشريعة بفاس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى كل من اهتدى بهديهم واقتفى أثرهم إلى يوم البعث والدين.
أما بعد؛

معلوم أن المغاربة دأبوا على التأكيد على صدق تعلقهم بأهداب العرش العلوي المجيد، وعملوا باستمرار وحب على توثيق عرى التلاحم مع العرش برابطة عقد البيعة الشرعي، الذي التزموا بمقتضياته منذ زمن سحيق، واستمر هذا التلاحم وتوطدت أركانه بمجيئ الأشراف العلوين، الذين التزموا من جانبهم بتحقيق الرخاء والطمأنينة للمغاربة على المستويين الدنيوي والديني. تتجلى هذه الطمأنينة فيما تحققه إمارة المؤمنين من الأمن الروحي في صفوف المغاربة، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية والانتمائية، العرقية والسياسية، مع الدفع بعجلة التقدم الحضاري والتنموي بمختلف أبعادها الاجتماعية والاقتصادية إلى الأمام؛ ولذلك أصبح المغرب اليوم في عهد مولانا أمير المؤمنين محمد السادس - نصره الله - يحتل المراكز المتقدمة على المستوى الإقليمي والقاري والدولي.

ثم إن هذه المقالة سأفرد لها للحديث عن معالم¹ ومؤسسات عملت على تجسيد وبيان ما لرابطة البيعة الشرعية من آثار حميدة على الاستقرار الديني، وإشاعة الأمن الروحي في المغرب والربوع الإفريقية على حد سواء، مما جعل القارة الإفريقية ترتبط روحيا بأمر المؤمنين حفظه الله ورعاه. هذا الاستقرار النفسي

1 - الاقتصار على هاتين المؤسستين لا يعني أنهما الوحيدتان المختصتان بالقيام بمهمة إنتاج الخطاب الديني المتزن والملتزم بمبدأ الوسطية والاعتدال؛ بل هناك جملة من المؤسسات التي تشارك مؤسسة التعليم العتيق والمجلس العلمي الأعلى في هذه الوظيفة الدينية الموجهة للمغاربة، من ذلك معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات، إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، قناة السادسة، معهد محمد السادس للقراءات، الدروس الحديثية، وغيرها من المؤسسات التي أشرف أمير المؤمنين على إطلاق ورش إصلاحها وإعادة هيكلتها وتأهيلها لتولي مهمة إنتاج الخطاب الديني المؤسس على الكتاب والسنة بالمغرب، المحافظ على الثوابت الدينية والوطنية المشتركة بين جميع المغاربة.

والأمن الروحي يتمظهر من خلال جملة من المؤسسات الدينية والشرعية، التي يرجع الاختصاص فيها إلى أمير المؤمنين، باعتبارها تابعة بشكل مباشر لسلطته الدينية، من حيث إنه أمير للمؤمنين وحامي حمى الملة والدين في هذا البلد العزيز؛ فهي أشد المؤسسات ارتباطاً بنظام البيعة الشرعي. ولقد بات دور هذه المؤسسات الدينية بازا في عهد مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، بعد أن أصدر ظهائر شريفة تنظمها وتحدد مهامها الرئيسة ووظائفها الأساسية، ومجال عملها، ونوعية نشاطاتها، والفئة المستهدفة بها.

المحور الأول: معالم تجسيد رابطة البيعة للاستقرار الديني وترسيخ الأمن الروحي

يقصد بالمعالم هنا تلک المؤسسات الدينية الوطنية المتمثلة في مؤسسة التعليم العتيق، ومؤسسة معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين، والمجلس العلمي الأعلى، والدروس الحسنية، والمجلس العلمي الأوروبي، ومؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة. هذه المؤسسات تتجلى أهميتها في هذا الباب، باعتبارها مؤسسات تهدف من خلال أنشطتها إلى ترسيخ الثوابت الدينية والوطنية، التي يقوم عليها التدين في المغرب. بالإضافة إلى أن الاختصاص فيما ارتبط بشؤونها يرجع إلى أمير المؤمنين، بناء على عقد البيعة الذي يتضمن السهر على حفظ الدين، وما انبثق عنه من نموذج التدين. وفي هذا السياق، نستحضر جواب الإمام الحسن البصري عن دور أولي الأمر من الناحية الدينية، قال رحمه الله: «إنهم يولون من أمورنا خمسا: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود؛ والله ما يستقيم هذا الدين إلا بهم»².

أولاً: مؤسسة المجلس العلمي الأعلى ودورها في الاستقرار الروحي

1. التعريف بالمؤسسة والاهتمام المولوي بها

تعتبر هذه المؤسسة الدينية العلمية معلمة من معالم تجسيد نظام البيعة للاستقرار الديني وترسيخ الأمن الروحي لدى المغاربة، نظراً لما تقوم به من أدوار التوعية الدينية الصحيحة لعموم المواطنين، وما توفره من مواكبة لقضايا المجتمع المغربي على مختلف الأصعدة، وبذلك تتوزع إسهاماتها التوجيهية في المجالات الدينية المحضة، والاجتماعية، والاقتصادية، والصحية. والحديث عن المجلس العلمي الأعلى يؤسس على اعتباره مؤسسة دينية تجسد مقتضيات البيعة لأمر المؤمنين، والتي منها حفظ الدين وتوفير مناخ مناسب للتدين في المغرب. ولقد بين الأستاذ أحمد التوفيق؛ وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية؛ أن طبيعة الوظيفة

2 - ابن رجب الحنبلي. جامع العلوم والحكم، ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، 1429 هـ / 2008 م، ص: 117.

الدينية التي يقوم بها الملك - نصره الله - تتجلى في سمو إمارة المؤمنين واحتكارها لسلطات التأويل الديني، من خلال الفصل بين المجالين الديني والسياسي، الذي ينتهي بالتأكيد على أن مرجع السلطة الدينية هي أمير المؤمنين، وإليه وحده يرجع توجيه السياسة باسم الدين، حتى أن مهام الهيئة العليا للجنة الإفتاء التي يضمها المجلس العلمي الأعلى، ليس لديها سوى صلاحيات استشارية تقترح بموجبها الفتوى على الملك بصفته أميراً للمؤمنين ورئيساً لهذا المجلس.³

ثم إن المنطلق في الحديث عن أهمية المجلس العلمي الأعلى من كون الحاجة الدينية والاجتماعية والتنظيمية ملحة على أن يحیی المغاربة حياة دينية، فإن هذا لا يتحقق إلا بموافقة التأطير والتوجيه الديني للشريعة الإسلامية، وخاصة المنهج الذي اختاره المغاربة عن علم ووعي في هذا البلد الآمن، من الأشعرية عقيدة، والمالكية مذهباً فقهماً، والجنيدية سلوكاً روحياً. وهذا المقصد الأسنى لا يمكن تنزيله على الواقع، على الوجه الأكمل، بما يضمن الوحدة والألفة، وما تقتضيه الأخوة الدينية من التعاون والتآزر على البر والتقوى، والانسجام والالتفاف حول قضايا الأمة الكبرى، إلا بشرط كون من يتولى أمر المسلمين هو الذي يستجيب لهذه الحاجة ويدبرها ويراقبها ويحميها، وهو الحالة التي عليها المغرب، حيث يرفع أمير المؤمنين هذا الجانب. وبهذه الحماية المولوية، يقطع الطريق على فكر التطرف والإرهاب، الذي يستغل الفراغ أسوأ استغلال.⁴

فمؤسسة المجلس العلمي الأعلى باعتبارها معلمة دينية دستورية يرأسها أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، أحدثت بموجب ظهير شريف رقم 270. 1.80 مؤرخ في الثالث من جمادى الآخر 1401 هـ (08/04/1981م)، وتمت إعادة تنظيمه بموجب الظهير الشريف رقم: 300. 1.03 الصادر في 02 ربيع الأول، 1425 هـ / (22/04/2004م). جاء هذا الإقرار الدستوري لهذه المؤسسة في إطار تحيين البناء المؤسساتي، الذي يدخل في إطار إعادة هيكلة الشأن الديني في عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس، التي تميزت بالعمل الحثيث على تحصين الثوابت الدينية الوطنية، والاشتغال الجاد على إعادة إنتاج الخطاب الديني المتزن، والمراعي لخصوصيات المحيط الوطني والإقليمي والدولي.⁵

جاء هذا الاهتمام المولوي بإصلاح الشأن الديني من خلال إعادة هيكلة مختلف المؤسسات القائمة عليه في المغرب، إثر الأحداث الإرهابية لـ 16 ماي 2003م بالدار البيضاء، الأمر الذي بات يهدد مقولة النموذج

3 - انظر الخطاب الملكي السامي في 30 أبريل 2004م، والمنشور في جريدة الأحداث المغربية، العدد 1923، 1 ماي 2004م.

4 - حسن عزوزي. التعاون بين المملكة المغربية والبلدان الإفريقية في مجال الحماية من فكر التطرف والإرهاب، درس حسني أقي بين يدي صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده لعام 1439 هـ.

5 - عبد النبي عيدوني. الإفتاء بين مكاسب الإصلاح والتحديات المتجددة، <https://www.assahifa.com>

المغربي الاستثنائي الإيجابي. لذلك، إصلاح الحقل الديني، من طرف جلالة الملك نصره الله، باعتباره أميرا للمؤمنين، بمنطق الحكمة والذكاء والتبصر والنجاعة، حقق ما كان يهدف إليه من الحفاظ على الثقافة الوطنية الإسلامية؛ وذلك بمواجهة التيارات الهدامة والمنحرفة، وصون صفاء الثوابت الوطنية، وتحصين المغرب من نوازع التطرف والإرهاب، والحفاظ على هوية المغاربة المتميزة بالوسطية والاعتدال والتسامح، وكذا تمنيع التوازن الاجتماعي والأمن الروحي للمغاربة... باعتبار كل ذلك مقدمات ضرورية لكل أورشال التنمية والإصلاح.⁶

2. وظيفة المجلس ودوره في الأمن الروحي للمغاربة

يعد المجلس العلمي الأعلى مَعْلَمَةً من معالم تجسيد البيعة للاستقرار الديني وترسيخ الأمن الروحي للمغاربة؛ وذلك من خلال أمور، منها:

1. كون هذه المؤسسة يرأسها أمير المؤمنين

وذلك بناء على رمزية جلالته، والرابطة التي تربطه بالمواطنين، وهي عقد البيعة الشرعية التي التزم جلالته بموجبها بحماية الملة والدين؛ وقد أشار إلى هذا الالتزام وما يترتب عليه في خطابه أمام المجلس العلمي الأعلى بقوله: «...لقد دأبنا منذ تقلدنا إمارة المؤمنين، ملتزمين بالبيعة المقدسة، وما تقتضيه من حماية الملة والدين على إيلاء الشأن الديني الأهمية الفائقة والحرص على قيام مؤسساته بوظائفها على أكمل وجه، والعناية بأحوال الساهرين عليها، والسير على النهج القويم لأسلافنا المنعمين، في الحفاظ على الأمن الروحي للمغرب، ووحدته المذهب المالكي».⁷ فالمغاربة انطلاقاً من صلاحيات هذه المؤسسة يشعرون بالاستقرار الديني والأمن الروحي، بسبب ما يجدونه من ضمان لممارسة حقوقهم الدينية، والتعبير عن مواجيدهم الإيمانية.⁸

2. كون هذه المؤسسة هي الجهة الوحيدة التي اعتبرها الدستور المغربي مؤهلة لإصدار الفتاوى المعتمدة رسمياً بشأن المسائل المحالة عليها، استناداً إلى مبادئ وأحكام الدين الإسلامي الحنيف ومقاصده السمحة.⁹

6 - عبد النبي عيدوني. الإفتاء بين مكاسب الإصلاح والتحديات المتجددة، <https://www.assahifa.com>

7 - الخطاب السامي لجلالة الملك أمام المجلس العلمي الأعلى بالدار البيضاء حول إعادة هيكلة الحقل الديني 2004/04/30م.

8 - إمارة المؤمنين دعامة للأمن الروحي، مقال منشور بموقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، <http://www.habous.gov.ma>

9 - الفصل الواحد والأربعون (41) من الدستور المغربي. دستور المملكة المغربية 2011م، إصدارات مركز الدراسات وأبحاث السياسة الجنائية بمديرية الشؤون الجنائية والعفو، سلسلة نصوص قانونية، شتنبر 2011م، العدد 19، ص: 28.

فجعل مهمة إصدار الفتوى من خصوصيات الهيئة العلمية المكلفة بالإفتاء، التابعة للمجلس العلمي الأعلى، الذي يرأسه أمير المؤمنين. وقد جاء ذلك صراحة في خطابه الأنف الذكر، ونصه: «وصيانة للحقل الديني من التطاول عليه من بعض الخوارج عن الإطار المؤسسي الشرعي، فقد أسندنا إلى المجلس العلمي الأعلى اقتراح الفتوى على جلالتنا، بصفتنا أميرا للمؤمنين ورئيسا لهذا المجلس، في ما يتعلق بالنوازل الدينية، سدا للذرائع، وقطعا لدابر الفتنة والبلبله»¹⁰. وهذا الإسناد يدخل في نطاق ما حمله من مسؤولية حفظ الدين وتحصينه من جهة العدم، وقد صرح حفظه الله بهذه الأمانة المنوطة به، فقال: «وقياما بالأمانة المنوطة بنا بوصفنا أميرا للمؤمنين، وما تستلزمه الإمامة العظمى من واجب حراسة الدين وإقامة شعائره وشرائعه وتمنيع قيمه ومكارمه مما قد يلابسها من ذرائع الزيغ والانحراف أو شوائب التنطع والابتداع»¹¹. وتأكيذا على تحصين منصب الفتوى من الفوضى والتسيب، جاء في خطاب جلالة الملك محمد السادس نصره الله ما نصه: «وبذلك نقوم بتحسين الفتوى التي هي أحد مقومات الشأن الديني بجعلها عملا مؤسسيا، واجتهادا جماعيا لا مجال فيه لأدعياء المعرفة بالدين ولتطاول السفهاء المشعوذين»¹².

فهذا التحصين والتمنيع لمنصب الفتوى في الدين يعطي للمغاربة طمأنينة وسكينة لكون قضايا الدين تحت حماية أمير المؤمنين، كما يحصن الفتوى من التضارب والتسيب والفوضى؛ وذلك بمنع كل من لم تتوفر فيه أهلية الفتوى¹³ المحددة في كتب الفقه للسادة المالكية وغيرهم من أئمة الدين. بالإضافة إلى أن الاستقرار النفسي والأمن الروحي للمغاربة في علاقتهم بالفتوى يتجسد في توحيد مصدرها، وجعلها صادرة من مؤسسة مشهود لأعضائها بالتمكن من فقه الواقع وفقه تحقيق المناط وتنزيل الأحكام على الواقع، مع ضبط قواعد ومناهج التأصيل، ومع إعطاء الفتوى صبغة جماعية ومسؤولية منوطة بالعلماء، ليقطع بهذا دابر الخلاف في القضايا الكبرى للأمة المغربية.

وقياما بالوظيفة التبليغية والتأطيرية المنوطة بالمجلس العلمي الأعلى، ومواكبة لقضايا المغاربة الكبرى، ونياية عن أمير المؤمنين، وتنفيذا لمقتضيات البيعة الشرعية، واكب المجلس من خلال الهيئة العلمية للإفتاء التابعة له أزمة كورنا المستجدة؛ بحيث أصدر فتاوى استجابة لأمر المؤمنين، وانسجاما مع التدابير الصحية

10 - مقتطف من الخطاب السامي لجلالة الملك أمام المجلس العلمي الأعلى بالدار البيضاء حول إعادة هيكلة الحقل الديني 2004/04/30 م.

11 - ديباجة الظهير الشريف رقم: 210. 05 الصادر في 15 من محرم 1427 هـ (14 فبراير 2006 م)، الصادر بالجريدة الرسمية، عدد: 5418_ 6 ربيع الآخر 1427 هـ (4 ماي 2006 م).

12 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه بفاس بتاريخ: 8 يوليوز 2005 م في إطار افتتاح الدورة الأولى للمجلس العلمي الأعلى.

<http://www.habous.gov.ma>

13 - قال الإمام مالك: «لا ينبغي للعالم أن يفتي حتى يراه الناس أهلا لذلك، ويرى هو نفسه أهلا لذلك»، ونحوه روي عن الإمام الشافعي، والإمام أحمد، وغيرهما من الأئمة الأعلام. انظر: الفروق، المسمى بأنوار البروق في أنواء الفروق، للإمام القرافي، الطبعة الأولى، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، مصر عام 1344 هـ، 2/110.

الاحترافية من الإصابة بالوباء المتخذة من قبل السلطات المغربية المكلفة بالصحة العامة للمواطنين المغاربة. فتجنبنا لانتكاسة صحية، أصدر المجلس فتوى يقضي من خلالها بجواز إغلاق المساجد¹⁴، تبعاً لجمهور¹⁵ علماء الشريعة قديماً وحديثاً، الذين قالوا بتقديم كلي حفظ النفس على كلي حفظ الدين؛ ومن ثم أفتت اللجنة العلمية بجواز إغلاق المساجد حفظاً للنفس من الهلاك، معززين فتواهم بأدلة شرعية صحيحة. فهذا البيان والبلاغ الشرعي بعث الأمل والطمأنينة في نفوس المغاربة بحصول مقصودهم من دينهم، إلا ما كان من بعض الأفراد المندفعين والمتحمسين، الذين لا يعرفون القيمة الشرعية لقرارات ولي الأمر وأهميتها في تقييد المباح¹⁶، ولا لفتاوى العلماء. وسبب ذلك يرجع - في نظرنا - إلى جهل هؤلاء أن واجبهم حيال فتاوى العلماء التقليد ووجوب الأخذ بها.

ثانياً: مؤسسة التعليم العتيق ودورها في تحقيق الأمن الروحي للمغاربة

إن مؤسسة التعليم العتيق منذ أول ظهور لها على أرض هذا الوطن العزيز، وهي تؤدي دورها في ترسيخ الأمن الروحي للمغاربة، من خلال تثبيت العلماء الساهرين على العملية التربوية فيها والقائمين على العملية التنظيمية بمفهوم البيعة الشرعية للحكام المتعاقبين على حكم المغرب، ودعوتهم الدائمة إلى ترسيخ الثوابت الدينية من إمارة المؤمنين، والتمسك بالعقيدة الأشعرية السنية كمنهج في الاعتقاد، والتمذهب بالمذهب المالكي كمنهج في التدين، وتصوف الجنيد كمنهج في التربية والسلوك، باعتبارها تشكل صمام الأمان للمغاربة في علاقتهم بالدين والدنيا. وسأحاول تجلية قضية ترسيخ مفهوم إمارة المؤمنين ولوازمها الأخرى، وما تهدف إليه من نشر فكر الوسطية والاعتدال في أوساط المغاربة قاطبة لينعموا بالأمن الروحي والاستقرار النفسي، من خلال مسألتين:

14 - انظر: فتوى المجلس العلمي الأعلى بالمغرب، منشورة في فتاوى العلماء حول فيروس كورونا، دار البشير، ط 1، 1441هـ/2020م، ص: 84؛ البيان الختامي للمجلس الأوروبي للدورة الطارئة، فتاوى العلماء حول فيروس كورونا، مرجع سابق، ص: 73.

15 - ويمثل هذا الاتجاه جمهور الفقهاء المعاصرين، من غالب المجامع الفقهية، وهيئات الفتوى الكبرى في العالم الإسلامي، مثل: هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، والمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، والمجلس العلمي الأعلى بالمغرب، ولجنة الإفتاء بدائرة الإفتاء بالأردن، والمجلس الإسلامي للإفتاء في الداخل الفلسطيني، وفتوى أساتذة كلية الشريعة بجامعة قطر. فتاوى العلماء حول كورونا، مرجع سابق، ص: 10 وما بعدها. (بتصرف)

16 - لقد أصدر مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة التعاون الإسلامي توصيات في إطار الندوة الدولية الطبية الفقهية التي عقدها عن بعد بتاريخ 16 أبريل 2020م، تحت عنوان: فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، وما يتعلق به من معالجات طبية وأحكام شرعية. جاء في هذه التوصيات أنه يجوز للحكومات والدول فرض تقييدات على الحرية الفردية بما يحقق المصلحة... كما أنه يجب الالتزام بقرارات الدول والحكومات بما يسمى التباعد الاجتماعي، ونحو ذلك مما من شأنه المساعدة على تطويق الفيروس ومنع انتشاره؛ لأن تصرفات الإمام منوطة بالمصلحة، عملاً بالقاعدة الشرعية التي تنص على أن (تصرف الإمام منوط بالمصلحة). انظر: موقع مجمع الفقه الإسلامي الدولي: <http://www.iifa-aifi.org>.

1. المواد المدرسة في المدرسة العتيقة

فمن خلال إلقاء نظرة على مفردات البرنامج التكويني لمؤسسة التعليم العتيق، يتبين الحضور القوي والوازن للعتيقة الأشعرية، والمذهب المالكي لإمام دار الهجرة، والتصوف السني للإمام الجنيد، والتي تدرس من خلال مصنفات مشهود لأصحابها بالتضلع في المجالات المذكورة. ففي التوحيد - مثلاً - يتشبع المتعلم في التعليم العتيق بقضايا علم التوحيد على منهج الإمام أبي الحسن الأشعري من خلال مقدمة الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني¹⁷، التي دعا فيها إلى وحدة الأمة وتجنب الفكر التكفيري المتطرف والمنغلق، الذي يزعم قواعد الحوار البناء ويهدم أسس التعايش المشترك مع المخالف في الرأي والفكر، ما دام داخلاً في دائرة أهل القبلة، فقال: «وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة»¹⁸. كما أنه نص على وجوب التمسك بمقتضيات البيعة الشرعية للإمام الأعظم، حيث قال: «والطاعة لأئمة المسلمين من ولاية الأمور...»¹⁹. والأمر نفسه ينطبق على مصنفات أخرى، كالعتيقة الصغرى الشهيرة بأم البراهين للإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي²⁰، وشرح الإمام الصاوي على جوهر التوحيد، وغيرها.

ويتعمق الفكر الوسطي الخريجي مؤسسة التعليم العتيق بتطوير معارفهم الفقهية على مذهب الإمام مالك، الذي التزم به المغاربة منذ قرون خلت، من خلال مصنفات السادة المالكية المشهود لأصحابها بعلو الكعب في هذا الباب، مثل: الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ومختصر الشيخ خليل، وبداية المجتهد لابن رشد، ينضاف إلى ذلك تعميق معرفتهم في فقه الحديث، وخاصة فقه موطأ الإمام مالك المؤسس على الحديث الصحيح بشروحه المتعددة، مثل: الاستذكار لحافظ المغرب الإمام ابن عبد البر، والمتنقى للعلامة القاضي الباجي، وشرح الزرقاني، مما يعطي للخريج منهجاً فكرياً معتدلاً متشبعاً بفكر المالكية، الذي من أخص مميزاته الوسطية والاعتدال، ونبت التطرف والغلو والانغلاق.

17 - فقد اعتبره قاضي القضاة شيخ الإسلام الإمام تاج الدين السبكي من الطبقة الثانية من الأشاعرة في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى). انظر: طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي، تح: محمود محمد الطناحي - عبد الفتاح الحلو، نشر فيصل عيسى البابي الحلبي، 1383 هـ / 1964 م، 3، ص: 368-372.

18 - ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ). مقدمة متن الرسالة في فقه الإمام مالك، ضبطه وصححه الشيخ محمد عبد الوارث، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ص: 09.

19 - ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ). نفس المرجع، ص: 10.

20 - هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي نسبة إلى قبيلة بالمغرب تسمى بني سنوس. كان له في العلوم الظاهرة وأوفر نصيب، وخاصة التوحيد والمعقول، تخرج على يديه علماء مغاربة أجلاء، منهم الشيخ العلامة أبو العباس أحمد زروق الفاسي صاحب «قواعد التصوف وشواهد التعرف». توفي الإمام السنوسي عام 895 هـ. انظر ترجمته في: المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الماللي التلمساني، تحقيق وتعليق: علال بوربيق، بحث مقدم للمشاركة في المسابقة الدولية لإحياء التراث، الجزائر، 1429 هـ / 2008 م؛ دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، لابن عسكر الحسني، تحقيق محمد حجي، ط. 2، مطبوعات جاز المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ص. 121؛ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، ص: 563.

وإن ملوك الدولة العلوية الشريفة الشاخنة تنبهوا لأهمية هذه المدارس العتيقة، والدور الذي تضطلع به وطنيا على مستوى الحفاظ على الأمن الروحي للمغاربة؛ وذلك عبر التوجيه النابع من الأصليون الكتاب والسنة، فكانوا يولونها اهتماما خاصا، ويعملون على إحيائها²¹ والعناية بشيوخها وطلبتها. وعلى نهج أسلافه المنعمين، سار الملك المفدى والمجاهد المعظم، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وفكريا وسياسيا وتنمويا، كان وما زال وسيظل إن شاء الله تعالى يجاهد ويرابط في كل هذه الثغور، لإعطاء المثال الصحيح للمواطن الصالح. ولقد ترجم هذه العناية المولوية في خطابه التاريخي، الذي من خلاله أصدر أوامره المطاعة وتعليماته السامية للعناية بهذا التعليم وأصحابه، حيث قال نصره الله وأيده: «لقد دأبنا منذ تقلدنا إمارة المؤمنين، ملتزمين بالبيعة المقدسة وما تقضيه من حماية الملة والدين، على إيلاء الشأن الديني الأهمية الفائقة، والحرص على قيام مؤسساته بوظائفها على أكمل وجه، وعناية بالساهرين عليها، والسير على النهج القويم لأسلافنا المنعمين في الحفاظ على الأمن الروحي للمغرب ووحدة المذهب المالكي»²².

وفي الخطاب نفسه، بين صاحب الجلالة أن الحقل الديني أسس عموما على أركان ثلاثة؛ الركن المؤسسي المتمثل في إعادة هيكلة وزارة الأوقاف، والركن التأطيري المتمثل في المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية، والركن الثالث المتمثل في التربية الإسلامية السليمة. وفي هذا السياق، نص الخطاب الملكي السامي على أن «الوظائف التأطيرية المنوطة بهذه الهيئات ستظل صورية، ما لم تقم على الركن الثالث الأساس المتمثل في التربية الإسلامية السليمة والتكوين العلمي العصري، فإنه مواصلة للجهود الرائدة التي بذلها والدنا المنعم جلالة الملك قدس الله روحه، نصدر تعليماتنا قصد اتخاذ التدابير اللازمة بأناة وتبصر، لعقلنة وتحديث وتوحيد التربية الإسلامية والتكوين المتين في العلوم الإسلامية كلها، في نطاق مدرسة وطنية موحدة. وفي هذا السياق، حرصنا على تأهيل المدارس العتيقة²³، وصيانة تحفيظ القرآن الكريم، وتحسينها من كل استغلال أو انحراف يمس الهوية المغربية، مع توفير مسالك وبرامج للتكوين تدمج طلبتها في المنظومة التربوية الوطنية، وتجنب تخريج الفكر المغلق، وتشجيع الانفتاح على الثقافات. وإننا لتوخي من كل ذلك، ليس فقط تمكين بلادنا من استراتيجية متناسقة كفيلة بتأهيلها لرفع كل التحديات في مجال الحقل الديني بقيادة أمير المؤمنين، باعتبارها موحدة للأمة ورائدة لتقدمها؛ بل أيضا

21 - لقد بدأت العناية بتنظيم هذا التعليم منذ القرن الماضي، حيث أطلق كل من جلالة الملك المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه وجلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه عدة مبادرات من أجل إحياء التعليم العتيق وتقنيته، وإدماج خريجيهِ في سوق الشغل.

22 - الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه يوم 30 أبريل 2004م أمام المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية. <http://www.maroc.ma/ar> البوابة الوطنية.

23 - لقد صدر سنة 2003م القانون المنظم للتعليم العتيق بموجب الظهير الشريف رقم 193.03.01 بتنفيذ القانون رقم: 01.13 في شأن تطوير وتأهيل التعليم العتيق. القانون منشور بالجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ 15 من ذي القعدة 1422هـ الموافق 29 يناير 2002م، وقعه بالعطف الوزير الأول عبد الرحمن اليوسفي.

بالإسهام العقلاني الهادف لتصحيح صورة الإسلام، مما لحقها من تشويه مغرض، وحملات شرسة، بفعل تطرف الأوغاد الضالين، وإرهاب المعتدين، الذي لا وطن ولا دين له»²⁴.

2. على مستوى الخريجين

ولكون المغرب راكم تجربة مهمة على مستوى التعليم الديني عموما، والتعليم العتيق خصوصا، حيث عمر قرونا عديدة في هذا الوطن العزيز برعاية الحكام العلويين الأشراف وغيرهم ممن سبقهم؛ ولذلك «يعتبر نموذج التعليم العتيق في المملكة المغربية متميزا على صعيد العالم، بحيث لا يترك مجالا لدعوى الإرهاب، التي تطعن في المدرسة العمومية في البلدان الأخرى، لكونها لا تعلم القرآن الكريم»²⁵.

ومن أجل ما تتميز به في دعوتها، وما تضمنته من مناهج لبناء فكر المتعلم بها على مبدأ الوسطية والاعتدال، فإن هذه المدارس في المغرب، كانت وما زالت وستظل مصدرا مهما وموردا ثرا لتخريج العلماء، والمفتين، والقضاة، والموثقين، والأئمة، والخطباء، والمرشدين، والمرشحات، الذين يخدمون الدين والوطن وينوبون نيابة صحيحة عن أمير المؤمنين، الإمام الأعظم في هذا البلد الآمن. وهذه - في تقديري - أهم صفات وأبرز نعوت المواطن العالم الصالح المصلح المحب، والمدافع عن وطنه. فمؤسسة التعليم العتيق لارتباطها المتين بإمارة المؤمنين، المؤسسة على نظام البيعة العتيق، وانطلاقا من برنامجها التكويني، تعمل على إنتاج عقليات تسعى إلى الحفاظ على الهوية المغربية، وترسخ الثوابت الدينية والوطنية، وتمتن روابط الوحدة بين المغاربة، وتعمل على الإسهام في معالجة الظواهر الاجتماعية الهادمة والمعرقة، وتقاوم الغارات الخارجية المنافية لثوابت الوطن.²⁶

ثم إن هذه المؤسسة تربي - انطلاقا من أصول الإسلام ومصادره، ووفقا لحاجات الأمة المسلمة ومقتضيات تطورها في منظومة عقيدة التوحيد، وشرعية الوحي، وصفاء الروح - طلابها على منهج الرحمة العالمية، التي ما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلا لتحقيقها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾²⁷. كما أن شيوخها وعلماءها يغرسون في نفوس طلابهم أخلاق السماحة والعدل والرحمة وحب الخير للإنسانية كافة، وعدم الاعتداء عليها بأي وجه من وجوه الإرهاب، سواء كانت البشرية موافقة في

24 - الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه يوم 30 أبريل 2004م أمام المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية. <http://www.maroc.ma/ar>. البوابة الوطنية.

25 - حسن عزوزي. مرجع سابق، <http://www.habous.gov.ma>.

26 - محمد أبيباط. التعليم العتيق سفينة النجاة، مطبعة أنفو برانت، دون تاريخ، ص: 63 بتصرف يسير.

27 - سورة الأنبياء: 106.

العقيدة أو مخالفة،²⁸ وهي كلها سمات من النبع الصافي لإمارة المؤمنين. فهذه أخص خصائص التعليم العتيق، وأعظم أهدافه، التي لا يحق للمتمخرج منه أن ينتسب إليه، حتى يكون داعية للإسلام والأمن بأوسع معانيه وأبعد آفاقه.²⁹

لقد أنتجت هذه المؤسسات علماء قاموا بالوقوف ضد تيارات منحرفة وبيان خطئها، كما وقفوا ضد الفرق التي ظهرت في المجتمع المغربي المسلم، فبينوا ما وقع فيها من الخروج عن تعاليم الإسلام. وكان ممن وقف في وجه هذه التيارات، عدد لا يحصى من العلماء، ممن حملوا راية العلم ولواء حب الوطن. وهؤلاء دأبوا على تنوير الشعب المغربي بأفكار تحمل في طياتها قيم التعايش، والدعوة إلى وحدة البلاد، وذلك بالانضواء تحت الثوابت الدينية، ومحاربة التطرف والغلو، وجميع أشكال العنف الفكري والمادي والرمزي ضد أي كان؛ ولذا اعتلوا منابر حساسة في المملكة، والتي على رأسها منصة الإفتاء الشرعي، الذي يتصل من خلاله هؤلاء العلماء المصلحون بعموم المواطنين، مما يتيح لهم ترسيخ كل ما يرتبط بالثوابت الدينية والوطنية وقضايا الدين وشؤون الدنيا.

المحور الثاني: الإشعاع الديني لإمارة المؤمنين³⁰ المؤسس على رابطة البيعة

سنقف على هذا الإشعاع الروحي لإمارة المؤمنين المرتبط بعقد البيعة الشرعية، والذيع الذي طبق الآفاق، من خلال الدروس الحسنية، التي يشرفها بالحضور المولوي الشخصي، ومؤسسة العلماء الأفارقة التي تشرف برئاسة أمير المؤمنين.

أولاً: الإشعاع الديني لإمارة المؤمنين من خلال الدروس الحسنية

بعد الوقوف على نصوص تاريخية مرتبطة بسير السلاطين الأشراف العلويين ومناقبتهم، وما قامت عليه سلطتهم الدينية والسياسية في المغرب من رابطة البيعة الشرعية، تبين أن أمير المؤمنين حفظه الله

28 - محمد أبيات. نفس المرجع، ص: 64-65 بتصرف يسير.

29 - محمد أبيات. نفس المرجع، ص: 64-65 بتصرف يسير.

30 - والخلافة وإمارة المؤمنين والإمامة العظمى ألفاظ بمعنى، فقد وردت في تعريف معناها الشرعي الاصطلاحي تعاريف كثيرة متقاربة. فهي كما قال الإمام الماوردي: «الخلافة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به». وبقراب من هذا التعريف عرفها التفتازاني، حيث قال: «رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم». ويقصد بها رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدنيا والدين. كما عرفها العلامة ابن خلدون بأنها: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به». وعرفها الإمام الجويني بقوله: «الإمامة رئاسة تامة وزعامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا». وعرفها رشيد رضا بقوله: «الخلافة رئاسة الحكومة الجامعة لمصالح الدين والدنيا». الأحكام السلطانية، للماوردي، ص: 2؛ شرح المقاصد، للتفتازاني، 5/ 232؛ المقدمة، لابن خلدون، مرجع سابق، 338؛ غياث الأمم، للجويني، ص: 15؛ الخلافة، لرشيد رضا، ص: 17.

ورعاه اجتمع فيه من المناقب والخصال الحميدة ما تفرق في أسلافه المنعمين، فلقد اتصف بالعلم والعبقريّة والذكاء والحكمة والأناة والتبصر والشجاعة والشهامة والعطف والحلم والكرم. فهو موصوف بالعدل لردع كل من تسول له نفسه الانغماس في براثن الفساد وعدم الانصياع إلى مقتضيات الإصلاح، معروف بالخير؛ بحيث إن يده ممدودة لكل المحتاجين والفقراء والمساكين، وخاصة في الظروف الصعبة والأزمات المحدقة، كأزمة كورونا التي عاش العالم أجمع على وقع آثارها السلبية المتنوعة أكثر من سنة. وفي إطار معالجة آثار كورونا الاقتصادية والاجتماعية، فقد أطلق أمير المؤمنين مبادرة ملكية سامية، تمثلت في إحداث صندوق لمساعدة المغاربة الذين أعوزتهم أزمته العالمية، وقد اعتبرت مبادرة مرجعية في زمن الوباء، وثمنها العالم أجمع.

بل امتدت يد العطاء والبذل إلى البلدان الإفريقية وغيرها؛ بحيث كان جلالته سباقا إلى المساعدة وتقديم يد العون لكل من كان في حاجة إلى ذلك من دول العالم. وهذا ما جعل جلالته باعتباره أميرا للمؤمنين، وسلطانا معظميا يحظى بمكانة خاصة في الداخل والخارج، عند العامة من عموم الناس والخاصة من العلماء والحكام والسياسيين والمثقفين والمفكرين، في الأوساط الدينية والسياسية. ولهذا، فإن القلوب أحبت أمير المؤمنين، ولهجت بفضلته وحسن سيرته وطيب سريره الألسنة في البلدان الإفريقية، وفي غيرها من دول العالم أجمع. وهذا يظهر جليا في إكرام العلماء واستضافتهم في المغرب طيلة أيام الدروس الحسنية الرمضانية المباركة، بالإضافة إلى الاحتفاء بالقراء المشهورين والمجيددين من داخل المغرب وخارجه. وما ذلك إلا لحبهم وتعلقهم الشديد بجلالة الملك، من حيث كونه أميرا للمؤمنين، وحاميا لحمى الملة والدين.

فالدروس الحسنية الرمضانية ارتبطت باسم الملك العالم العبقري الأملعي الراحل الحسن الثاني طيب الله ثراه منذ 1963م، باعتبار ما يقتضيه لقب أمير المؤمنين من مسؤوليات الإصلاح والتوجيه في مختلف المجالات، والتي منها رعاية القضايا الدينية وحمايتها من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، من خلال مؤسسة خيرة علماء المغرب والعالم الإسلامي أجمع، ليقوموا بواجب التبليغ، ويمنعوا الفكر التكفيري الإرهابي من الانتشار والذيع في أوساط عموم المسلمين، بنشر الفكر الصحيح المحقق للوحدة والألفة والانسجام، ورص صف جماعة المؤمنين.

وسيرا على نهج والده، وباعتباره سبط النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، ورجلا مؤمنا صالحا داعيا إلى اتباع الهدى والحق، استمر عقد هذه الدروس في عهده حفظه الله ورعاه لنشر الثقافة الإسلامية³¹ الصحيحة، وبناء مؤسساتها في ربوع هذا البلد العزيز³². ثم إن هذه الدروس الحسنية الرمضانية التي تعقد

31 - مجلة الاعتصام، العدد 1، السنة 1، تصدرها جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية بالمملكة المغربية، ص: 6.

32 - إدريس العبدلاوي، مجلة دعوة الحق، العدد: 268، موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

بحضرة أمير المؤمنين في قصره الملكي العامر، تلعب دورا كبيرا في تأكيد الإشعاع الروحي لإمارة المؤمنين داخل المغرب وخارجه؛ حيث تعتبر ملتقى عالميا سنويا لعلماء الأمة من أنحاء العالم الإسلامي. فهي بهذا تعد مسرحا مهما وفضاء خصبا لتلاقح الأفكار، وتبادل المعارف والخبرات في التكوين والتأطير الديني لعموم المسلمين حول العالم؛ وذلك من خلال العروض ذات الجودة العالية التي تعرض على أنظار جلالة الملك بحضرة العلماء، مما يجوز القول بأن المضامين الشرعية المنصبة على معالجة القضايا الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها الواردة في هذه الدروس الرمضانية، هي محل إجماع من قبل العلماء، الذين يتشرفون بحضور هذه المجالس السلطانية العلمية والعالمية، كما يعطيها قوة وثباتا في الشيع والذيع. ويتجلى الإشعاع الديني لإمارة المؤمنين في هذه الدروس، من خلال ما يلي:

1. تلبية علماء العالم الإسلامي لدعوة أمير المؤمنين، من جهة كونه أميرا للمؤمنين؛
2. ارتباط الضيوف من العلماء والمفكرين والمثقفين الأجانب، الذين يحضرون هذه المجالس العلمية، بإمارة المؤمنين، ارتباطا معنويا روحيا، تتجلى معالمه في حب آل البيت الذين ينحدر منهم جلالة الملك حفظه الله ورعاه؛

3. التصريح بلقب أمير المؤمنين، ومخاطبته بلقبه الشرعي الديني أثناء إلقاء الدروس؛

ثانيا: مؤسسة العلماء الأفارقة ودورها في تأكيد الإشعاع الروحي لإمارة المؤمنين

ترتبط عدد من دول إفريقيا بإمارة المؤمنين ارتباطا روحيا، نظرا لما يتمتع به أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله من مكانة متميزة سامقة، ومنزلة رفيعة سامية، قاريا إن على المستوى السياسي أو الديني. وتتأكد هذه الرابطة بأمر المؤمنين من جهتين: من جهة العامة، المتمثلة في التربية السلوكية الروحية؛ ومن جهة الخاصة، المتمثلة في العلماء والدعاة إلى الله والمصلحين الناصحين.

1. مظاهر الارتباط الروحي والإشعاع الديني على مستوى الخاصة

لقد ارتبطت دول إفريقيا بإمارة المؤمنين ارتباطا قويا؛ بحيث اجتمعت مع المغرب في واحد من الثوابت الدينية، الذي هو السلوك الروحي المعروف بالتصوف. فقد كان معظم الدعاة والتجار المغاربة في إفريقيا صوفية شاذليين منذ القرن السابع الهجري، إلى أن تجددت حركة التصوف على أيدي أتباع الشيخ أحمد بن إدريس، والشيخ أحمد التجاني. هذا الشيخ الأخير الذي هاجر جده الرابع من قبيلة عبدة قرب مدينة آسفي، إلى عين ماضي، وعاد هو إلى فاس حيث أسس طريقته. وبقطع النظر عن أنواع المعارضة الفكرية لمذهب التصوف، ولا سيما من قبل المتطرفين، فإن صيغته المغربية الإفريقية تميزت بالطابع الأخلاقي العلمي،

والقدرة على التعبئة الشعبية، بما يحقق الألفة وعدم التفرقة بإثارة الأفكار المشوشة بقصد التشغيب على المسلمين ورميهم بالتبديع والتفسيق والمروق من سنن السلف الصالح.³³

يتجلى الحضور القوي والرائد لإمارة المؤمنين على هذا المستوى، فيما دأب عليه سلاطين المملكة الشريفة من تقديم الدعم لمؤسسات التصوف السني في إفريقيا (الزوايا)، لنشر قيم الدين السمحة في ربوعها. وقد عملت الزوايا في إفريقيا بواجب إشاعة روح السلام والمحبة، التي تنطلق من نشر مفهوم التصوف الصافي، وتوجيه الوعي السلوكي الجامع، والرقي بالفكر والفهم السليم لجوهر الدين، وتحقيق المقصد الأسنى من الوجود الإنساني، وهو الخضوع والاستسلام لرب الأرض والسموات، وتوجيه النفس نحو محبة الخالق، والإحسان إلى الخلق.³⁴

ومعلوم أن الطريقة التيجانية تأسست بفاس العاصمة العلمية والروحية للمملكة الشريفة، ثم منها انتشرت نحو مناطق عديدة بالبلدان الإفريقية، حتى صار أتباعها يعدون بعشرات الملايين، كلهم يهفون بقلوبهم نحو فاس، ويعتبرون مبايعة شيخهم سيدي أحمد التيجاني للسلطان مولاي سليمان، مبايعة لازمة لأتباعه مع الدولة العلوية الشريفة، فلا يخاطبون ملوك المغرب المتعاقبين إلا بأمر المؤمنين.³⁵

ولهذه الروابط الروحية القوية بين الدولة العلوية الشريفة والزوايا التيجانية، يؤدي التيجانيون واجب الولاء والطاعة بمقتضى البيعة الشرعية التي في عنقهم منذ زمن سحيق. ولقد تجدد هذا العهد بإمارة المؤمنين بمجيء شيخ الإسلام الحاج إبراهيم نياس، مجدد الطريقة في غرب إفريقيا. ومما يصدق هذه الرابطة الروحية، ويؤكد الإشعاع الديني لإمارة المؤمنين، أن جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه لما نفي قسرا وظلما إلى مدغشقر عام 1953م، أسرع الشيخ المذكور إلى زيارته هناك، ليجدد البيعة ويثبت له الولاء.³⁶

ولقد ازدادت هذه الروابط الروحية قوة وفتوة، كما ازداد الدعم للمدارس الصوفية في عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله ورعاه شيوعا وذيوعا، فهو الراعي للزوايا التيجانية وغيرها في الربوع الإفريقية. وتجديدا لعهد البيعة بأمر المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره

33 - حسن عزوزي. مرجع سابق، <http://www.habous.gov.ma>.

34 - رقية منيه. إمارة المؤمنين ورعايتها للثوابت الدينية عبر التاريخ في السياق الإفريقي، كلمة ألقته الأستاذة رقية (محاضرة بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بنواكشوط) في إطار الدورة التواصلية الثالثة لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة <https://www.fm6oa.org>.

35 - مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، تقديم، منشورات المؤسسة، وثيقة مقدمة للمشاركين في اجتماع المجلس العلمي الأعلى الأول، المنعقد بفاس، 19-20-21 ربيع الأول 1439هـ/ الموافق 8-9-10- دجنبر 2017م، ص: 28.

36 - أحمد التوفيق. مقتطف من كلمة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية التي ألقاها في الدورة الثالثة والأربعين لأكاديمية المملكة المغربية يوم 10 ديسمبر 2015م.

الله وأيده، أشاد وفد من الشيوخ والمقدمين التيجانيين في الجمع العام الأخير للمتسبين إلى الطريقة التيجانية، الذي انعقد بفاس عام 2017م، بالدور الذي تقوم به إمارة المؤمنين بالمغرب في تمكين الروابط الروحية بين المغرب وإفريقيا، وجددوا بيعتهم لإمارة المؤمنين، وأقروا باتخاذهم فاس العاصمة الروحية والثقافية لهم أينما كانوا.³⁷

والشواهد الدالة على هذه النفحات الإيمانية المتجلية على عدد من البلدان الإفريقية أكثر من أن تعد أو تحصى في هذا المقام، والتي من أبرزها بناء المساجد على الطراز المغربي، وتزويدها بأعداد كبيرة من نسخ المصحف المحمدي، الذي يوزع مجانا في العالم الإسلامي كله. وهذا كله من نفحات إمارة المؤمنين على العلاقة الجيدة، التي تربط الإخوة الأفارقة بأمير المؤمنين حفظه الله ورعاه.

2. مظاهر الارتباط الروحي والإشعاع الديني على مستوى الخاصة

وعلى مستوى الخاصة، فإن ذلك يتمثل في ارتباط علماء البلدان الإفريقية بإمارة المؤمنين، ارتباطا روحيا يجتمع في الرؤية المولوية والدعوة إلى الإصلاح وحب الخير لجميع المؤمنين، بغض النظر عن أنسابهم وأعرافهم، وتقديم الدعم لهم، ومد يد العون لهم على مختلف الأصعدة. ولقد تأكد هذا الارتباط وازداد قوة وثباتا بمأسسته من خلال إبداع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، التي يرعاها أمير المؤمنين رعاية خاصة ماديا ومعنويا؛ وذلك ليسهل التواصل الديني بين أهل العلم على المستوى القاري، والتعاون على القيام بمهام التأطير الديني، القائم على الاعتدال لعموم المسلمين في إفريقيا.

ومن مظاهر هذا الارتباط الروحي والتلقائي القائم على حب رسول الله صلى الله عليه وآله وآل بيته الطيبين الطاهرين رضوان الله تعالى عليهم جميعا، ما جاء على لسان الشيخ أبي بكر فوفانا³⁸ بحضرة العلماء من جميع أنحاء القارة الإفريقية، من قوله: «إن إبراز مكانة إمارة المؤمنين، والتعريف بجهودها في رعاية الشأن الديني بإفريقيا والعالم قاطبة، واستحضار العناية السامية لجلالة الملك في خدمة قضايا الإسلام والمسلمين، والكشف عن مقاصده النبيلة في ترسيخ النموذج الديني المعتدل، وتثبيت مبادئه المثلى وقيمه العليا... من شأنه أن يهيئ لشعوب قارتنا وللإنسانية جمعاء مناخا صالحا يضمن تحقيق سعادتها وأمنها ونمائها... ويدراً عنها الفتن والفوضى، وينأى بها عن الانجراف وراء التيارات التي تهدد أمنها وسلامتها... وإن التعريف بإمارة المؤمنين هو تعريف بهويتنا وحضارتنا وعهودنا المقدسة... وإن

37 - أحمد مقري (عضو هيئة الإفتاء بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بنيجيريا)، أبعاد إمارة المؤمنين في السياق الإفريقي، كلمة ألقاها في إطار الدورة التواصلية الثالثة، <https://www.fm60a.org>.

38 - الشيخ أبو بكر فوفانا رئيس المجلس الأعلى للأئمة ورئيس فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بجمهورية الكوت ديفوار.

استحضار واستلهاهم المكانة المرجعية لإمارة المؤمنين رسالة فاضلة، وأمانة نبيلة في عنق علماء هذه الأمة، أمانة تملئها ضرورة العناية بالشأن الديني بشتى وسائل العناية، وحفظ الثوابت الدينية المشتركة بكل أنواع الحفظ الممكنة، إيماننا منا بأن هذا النموذج وتلكم الجهود يمثلان تجربة رائدة ومتميزة، ويشكلان عامل نهضة علمية وروحية، تنبعث من المغرب لتعم وتشمل أرجاء العالم.³⁹

إنها شهادة عالم في مركزية إمارة المؤمنين في العناية بالشأن الديني في القارة الإفريقية، وحراستها للثوابت الدينية المشتركة بين البلدان الإفريقية، التي تشكل الرابطة الدينية التي لا تنفصم عراها؛ ومن ثم فإنها من أهم عوامل الوحدة والتعاون البناء على أصعدة مختلفة، والرقى بأوضاع الأفرقة وتحسين أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية. بل ربط في شهادته بين إمارة المؤمنين وهوية وحضارة القارة الإفريقية المقدسة، التي ترجع إلى عهود ضاربة في أعماق القدم والتاريخ. بالإضافة إلى الإشادة بإمارة المؤمنين باعتبارها الضامن الأساس في توفير المناخ الصالح للدين، ودرء الفتن والفوضى، والابتعاد عن الانجراف وراء التيارات الداعية إلى العنف والتكفير، وهدم أركان الحوار، ومبادئ التعايش السلمي بين المختلفين في الدين.

خاتمة واستنتاجات:

لقد تبين من خلال هذا العرض المفعم بالحقائق الصحيحة، أن عقد البيعة لينعكس دوما على الاستقرار الروحي والأمن الديني، القائم على الثوابت الدينية المشتركة، المتمثلة في العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف السني للإمام الجنيد، وإمارة المؤمنين التي تعد شرطا ضروريا وصمام الأمان، للتعامل مع القضايا الوطنية والدولية بحكمة وتبصر وذكاء.

هذا، وإن توفر المغرب على مؤسسات تعمل دوما على ترسيخ المفهوم الصحيح للدين، بإشراف علماء مغاربة مشهود لهم بالكفاءة العلمية، ومتصفين بالعدالة والأمانة والصدق في تحمل الدين وتبليغه للناس نيابة عن أمير المؤمنين، وتوحيد مصدر الفتوى في الشأن العام، جعل المغاربة يعيشون في اطمئنان نفسي وأمن روحي، ويلتفون حول القضايا الدينية والوطنية المركزية؛ لكونها تحظى بالرعاية الفعلية لأمر المؤمنين، الشيء الذي قطع الطريق على من ليس أهلا لتصدر مجالس الإفتاء، التي لا يحق توليها إلا الأئمة من العلماء.

39 - أبو بكر فوفانا. المكانة المرجعية لإمارة المؤمنين كعامل نهضة علمية وروحية، كلمة ألقاها في إطار اللقاء التواصل الثالث المنعقد بمقر مؤسسة محمد السادس بفاس بمناسبة شهر رمضان الأبرك. <https://www.fm60a.org>.

نظرات واستنتاجات؛

إن المتأمل في الحقائق التاريخية المعروضة والمعطيات الشرعية السابقة، ليقف على جملة من الاستنتاجات المستخلصة من النظرات القائمة على المناهج العلمية فيما ورثه المغاربة من الأمن الروحي والإشعاع الديني لإمارة المؤمنين، وهي كالتالي:

- ✽ الحكم في المغرب يقوم على البيعة الشرعية التي يعقدها أهل الحل والعقد، وأن هذا النظام عريق متصل ومتين؛
- ✽ البيعة في النظام المغربي ترجع بالسند المتصل إلى البيعة الأصلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛
- ✽ نظام الحكم في المغرب له بعدان؛ بعد ديني وآخر سياسي، وهو ما يجعله فريدا في العالم بأسره؛ بل ذلك هو سر نجاحه؛
- ✽ إمارة المؤمنين في المغرب تعد الضامن الأساس للاستقرار النفسي والأمن الروحي للمغاربة في الداخل والخارج؛ وذلك بالسهر المباشر على قضايا الدين والتدين؛
- ✽ بيعة أمير المؤمنين لا تقتصر على المغاربة؛ بل ينخرط فيها عدد كبير من أهل البلدان الإفريقية؛
- ✽ تسعى إمارة المؤمنين إلى توحيد جهود عماء المغرب وباقي الدول الإفريقية لخدمة مصالح المسلمين الدينية والدنيوية في هذه الربوع؛
- ✽ ثم إن إمارة المؤمنين تعتبر الحصن الحصين والركن الركيز لهذه الثوابت واستقرار العمل بها في المغرب؛ وذلك أن جلالة الملك باعتباره أميراً للمؤمنين يعتبر حامياً لحمى الملة والدين في هذا الوطن الغالي، ألبسه الله تعالى رداء الصحة وأدام عليه وعلى أسرته الكريمة نعمة العافية.

عيد العرش المجيد

بين الرمزية الدينية والدلالة الاجتماعية

• ذة. حكيمة شامي

أستاذة باحثة - الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، منور القلوب، علام الغيوب، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خير المرسلين، وعلى آله وأصحابه الأفاضل؛

لكل أمة في تاريخها مناسبات تعتبر ذاكرتها التي تحتفظ لها بمجموعة من الأحداث التاريخية الهامة، وهي تتنوع بين ما هو ديني أو سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو عسكري أو ثقافي. ويتمخض عن كل مجال حدث له أهميته واعتباره. وهي لا تحتفل بكل هذه المناسبات التي تذكرها بأحداثها البارزة بدرجة واحدة في الاهتمام، فهي تفضل مناسبة على أخرى، متأثرة في ذلك بالظروف والأحداث، وكذا المستقبل الذي تسعى إليه بين الأمم.

إن من مصلحة الإنسانية أن تحافظ كل الأمم على إحياء المناسبات العامة، لكونها تقوم في المجتمع الدولي، بنفس الدور الذي تقوم به المناسبات الوطنية المحلية داخل البلد الواحد، فهي تبث روح الأخوة، وتقوّم عوامل الفرق، وتذكر الإنسانية بوحدتها التاريخية ومصيرها المشترك.

من هنا تأتي أهمية الاحتفال بمناسبة عيد العرش المجيد في المملكة المغربية، لا كعيد وطني فحسب، بل هو عيد تجديد البيعة والعهد لأمر المؤمنين - صاحب الجلالة أعزه الله -، إذ هي مناسبة دينية وسياسية، لها رمزية دينية ودلالة اجتماعية كبيرة، وتحمل في تضاعيفها معنيين؛ معنى وطني محلي، ومعنى إنساني عام، فهي مناسبة وطنية تعبر عن مشاعر ومواقف أصيلة راسخة في هذا الوطن، تتصل بحدث عظيم، يرتبط في الوقت نفسه بالمشاعر الإنسانية العامة. وقد أشار إلى هذا المعنى جلالته الملك محمد السادس - حفظه الله - في أحد خطاباتته بمناسبة عيد العرش المجيد بقوله: «إن عملنا لا يهتم كثيرا بالحصيلة والمنجزات، وإنما بمدى أثرها في تحسين ظروف عيش المواطنين. ذلك أننا نضع البعد الإنساني في طليعة الأسبقيات. فما يهمنا هو المواطن المغربي، والإنسان بصفة عامة، أينما كان»¹.

1 - خطاب العرش بتاريخ: 30 يوليوز 2016م، بمناسبة الذكرى السابعة عشر لعيد العرش المجيد.

فمناط الأمر بدءاً ونهاية، هو اتخاذ الشعب المغربي هذه المناسبة بمظهرها الرسمي والشعبي، وسيلة لإحياء جميع المبادئ الدينية والقيم الإسلامية المتجذرة، والملاحم البطولية والنضالية التي قادها العرش والشعب معا ببسالة وتفانٍ من أجل صون كرامة البلاد وحرمتها وسيادتها. فكانت بحق خير مناسبة لاستحضار المنجزات الكبرى والإصلاحات الرائدة التي يقودها أمير المؤمنين ملك البلاد نصره الله.

وعليه، فمناسبة عيد العرش ذكرى تحمل دلالات رمزية واجتماعية كبرى، تتجسد في تجديد البيعة بين العرش والشعب، وتتجلى في الاستمرارية التاريخية لإمارة المؤمنين وأثرها في بناء مغرب قوي.

وبناء على ما تقدم، سنحاول في هذا المقال توضيح الأبعاد الدينية لعيد العرش المجيد، مع الإشارة إلى بعض مميزات ومظاهر نظام البيعة عند أهل المغرب، وكذا تبيان الدلالات الاجتماعية لهذه المناسبة، وانعكاساتها على الحياة العامة كهوية راسخة في قلب الشعب المغربي.

أولاً: مظاهر البيعة عند المغاربة

لما كان كيان الأمة يحتاج إلى نظام يقوم بالحفاظ عليها، وقع الإجماع على نصب الإمام، فقد جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة، لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»². وهذا وعيد يجب الحذر منه كل الحذر.

وقد جاء في الجامع من حديث البيهقي عن أنس: «إذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها، إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض»³. ونقل عن الإمام أبي حامد الغزالي قوله: «أعلى الأنبياء رتبة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يلي الأنبياء العلماء الذين هم ورثتهم، فإنهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق كما هدى بالأنبياء سائر الخلق، فتمم بهم حكمته»⁴.

وفي ظل الدولة العلوية الشريفة الحسنية التي هي تاج مفارق الدول، وغرة الأواخر والأوائل، وهي التي أمن الله بها أقطار الأرضين من هذه المغرب، كما أمن أهل السماء بالنجوم الطوالع والغوارب، جاء عقد البيعة في ظلها متواصلاً بالسند المتصل، ومع تولي أشرافها على الحكم، أعادوا بناء البلاد وساهموا في استقرار الأوضاع، مع إخماد نار الفتنة التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى. ومن هذه اللحظات العصبية

2 - صحيح مسلم، بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، م. 3، ص. 33، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، رقم الحديث: 4814، ص. 718.

3 - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، السخاوي، رقم الحديث 132، ت. عثمان الخشت، دار الكتب العربي، ط. 2، 1414هـ.

4 - الجيش العرمرم: ص. 25.

من الفوضى التي عمت البلاد بعد وفاة المولى إسماعيل (عام 1139هـ/1727م)، «فسئم الناس الهرج والفتن، وأعياهم التفاقم والاضطراب، وملوا الحرب... فاتفق أهل الحل والعقد على مبايعة السلطان سيدي محمد بن عبد الله عام (1171هـ/1757م)، بعد وفاة والده مولاي عبد الله»⁵، فانعكست بركة هذه البيعة على البلاد قاطبة لقيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بإدارة البلاد بحزم وحكمة وروية واقتدار⁶.

وللمغاربة تأصيل وتاريخ، فهم الذين سارعوا إلى مبايعة المولى إدريس كأول حاكم مغربي جمع بين إمارة الدين وسياسة الدنيا، فكانت تلك اللبنة الأولى التي ارتكز عليها بناء صرح مؤسسة إمارة المؤمنين في مختلف مراحل تكوينها وتطورها، فجاءت مبنية على أسس شرعية صحيحة، تولى أمرها أهل العلم والورع ودوحة الشرف، وشكلوا منهجا متوازنا يقوم على الثوابت الدينية المشتركة، والحوار والتعايش، وتحقيق العدل، وبيان سبل الهدى والرشاد في سبيل نشر الخير والصالح.

وبفضل هذا النهج القويم والعقد السديد بين الشعب والملك -أمير المؤمنين - بقي المغرب في منأى عن الصراعات التي عاشتها بعض البلدان، وما زالت أضرارها مستمرة إلى اليوم. فأمر المؤمنين هو الراعي والضامن لدوام الاستقرار والازدهار.

وينضاف إلى ما سبق في نظام البيعة، عمل أهل المغرب المتفرد في عقدها، الذي ميّزه عن غيره من البلدان الإسلامية، إذ لم يكتفوا بالبيعة الشفهية، بل جعلوها مكتوبة وتشرف عليها هيئة عالية من عدول أهل العلم والورع، فتأتي بيعة ممثلي مختلف جهات المملكة خلال حفل الولاء لعيد العرش المجيد تجسيدا للعمق التاريخي والحضاري، الذي يتميز به المغرب منذ أكثر من 12 قرنا، هيئة تباع الملوكة في المغرب، تتشكل من كافة مكونات الشعب وفي مقدمتها الفضلاء والوجهاء وعلماء الشرع⁷. فمع وصول السلاطين العلويين إلى الحكم في المغرب، أصبحت البيعة تشكل جانبا من نظم الدولة، خصوصا بعد الاهتمام بتوثيقه، لما له من رمزية ودلالة سياسية للسلطة في البلاد، وإن كانت النصوص المكتوبة للبيعات لم يصلنا إلا القليل منها، وهذا لا يعني عدم وجودها⁸.

5 - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد الناصري: 58/1.

6 - المصدر السابق: 125/1، الجيش العرمم: ص. 165-166.

7 - صور من البيعة الشرعية للمولى الحسن الأول: محفوظة بالخزانة الملكية - الرباط.

8 - بعض الوثائق المتعلقة بالبيعة الشرعية:

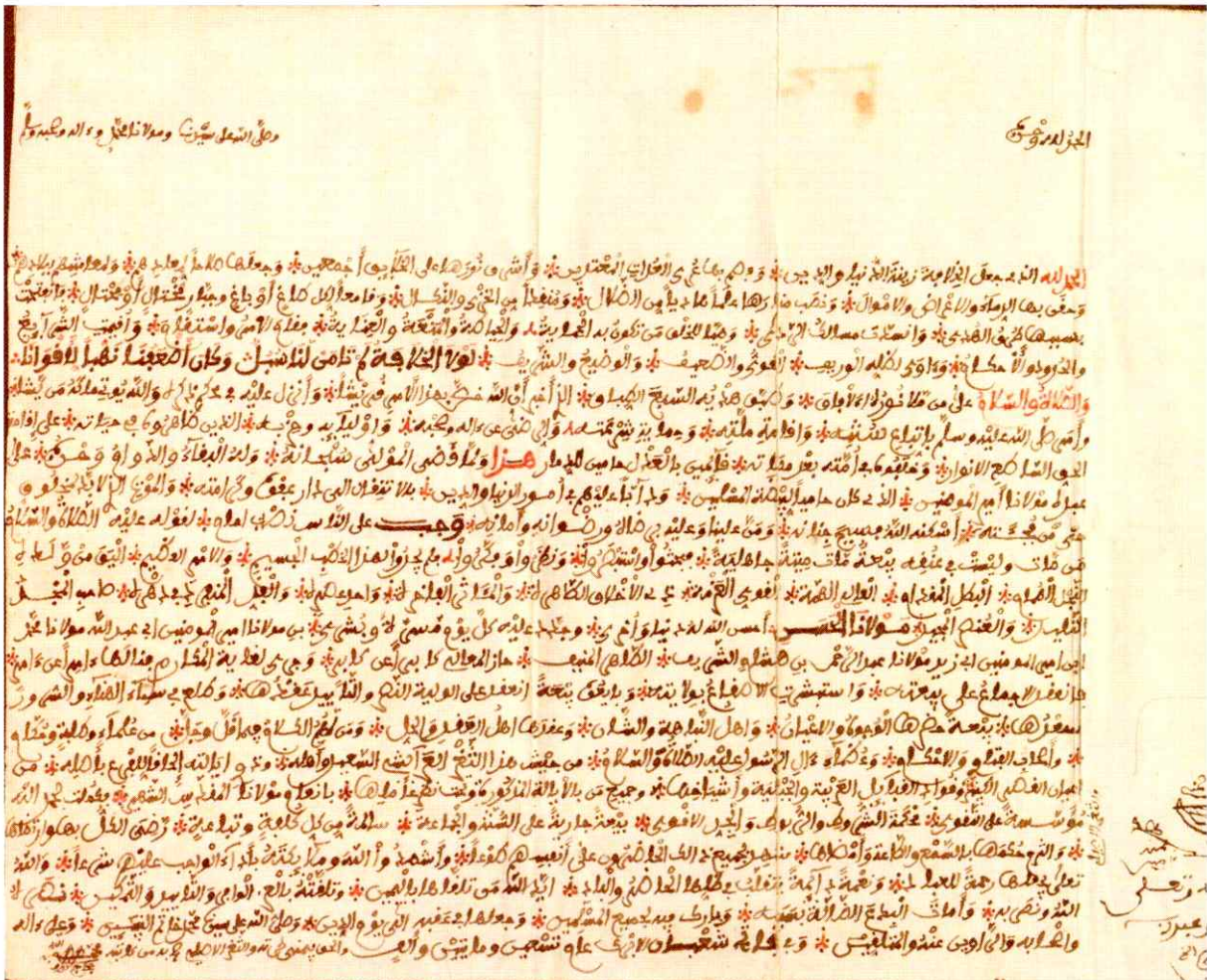
• بيعة علماء فاس للسلطان مولاي سليمان، بتاريخ 18 رجب عام 1206 هـ، (الاستقصا 8/ 87-90).

• بيعة فاس وما إليها للأمير إبراهيم بن اليزيد، بتاريخ 9 صفر عام 1236 هـ، خ. س. 3/ 12458.

• بيعة الرباط للسلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، بتاريخ الخميس 19 ربيع الثاني 1238 هـ.

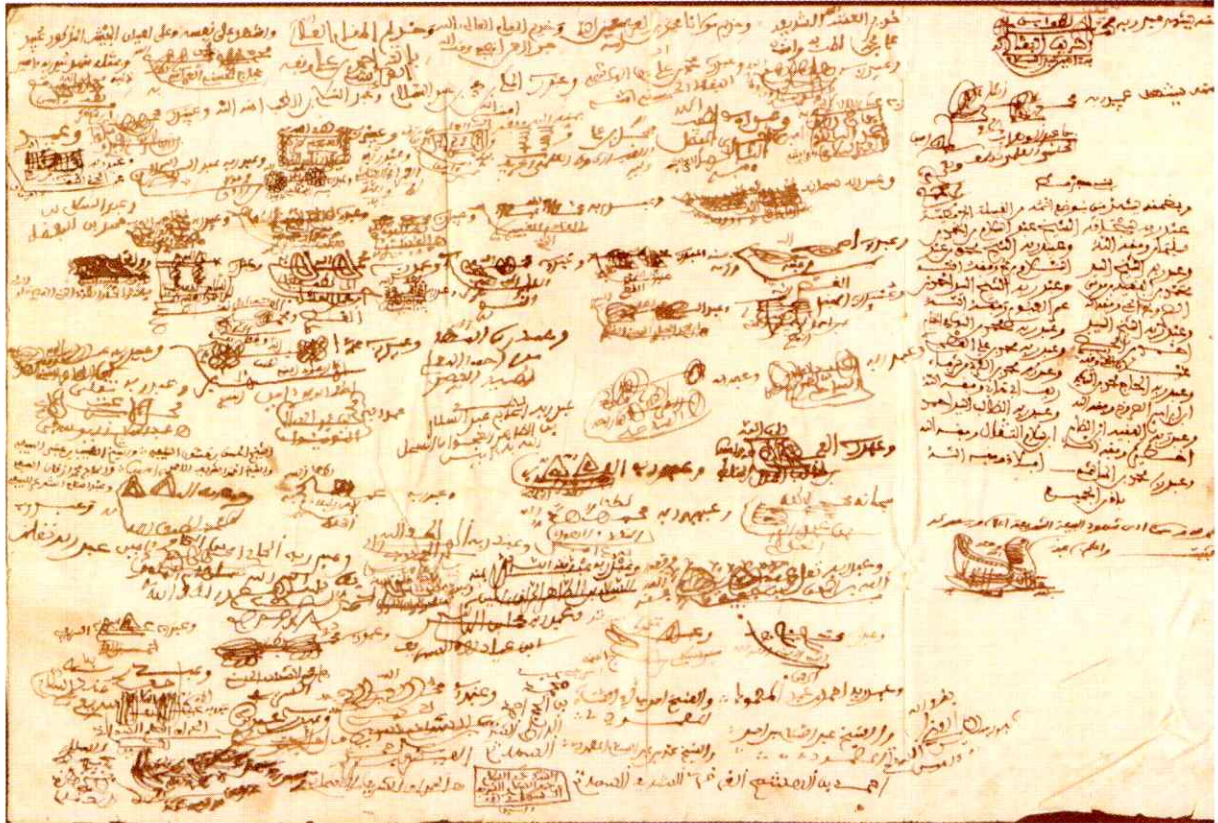
يذكر العلامة أكنسوس عند حديثه عن بيعة مولاي إسماعيل، ما نصه: «فانعقدت له البيعة وحضرها الأكابر من أهل المغرب، ووافق عليها أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف؛ كـ «الشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي، والشيخ أبي علي اليوسي»⁹. ويستحضر الزياتي في «البستان الطريف» نص بيعة أهل فاس للسلطان مولاي عبد الله¹⁰. ويذكر الناصري في «الاستقصا» بيعة اليزيد بن محمد بن عبد الله من طرف أهل مراکش، وبيعة أهل فاس للسلطان مولاي سليمان. ونجد بعد هذه الفترة نصوص بيعات متعددة في عهد عبد الرحمن بن هشام، ومن تولى بعده من السلاطين.

ومما يلاحظ في هذه البيعات أن لها خصوصيات بالنظر للمبايع له أولاً، والفترة التي عقدت بها، وثالثها طبيعة الفئات المجتمعية التي عقدت تلك البيعة.



9 - الجيش العرمرم، لأبي عبد الله محمد أكنسوس، ت. أحمد بن يوسف الكنسوسي، ط. 1، د. ت، المطبعة والوراقة الوطنية، مراکش.

10 - المصدر السابق، وكتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الناصري، 1/ 58.



نسخة من وثيقة بيعة السلطان الحسن الأول

إن التعرف على شكل ومضمون البيعة في ضوء - نموذج بيعة السلطان الحسن الأول - يوضح جملة من الأحكام السلطانية، التي لها أشكال مختلفة، فمنها الطويلة؛ التي تذيّل بتوقيعات المبايعين¹¹، وتكون للمدن الكبرى من «العواصم ك: فاس، مراكش، الرباط». ومنها القصيرة؛ وهي التي تأتي مختصرة لبعض بيعات المدن الصغيرة أو القبائل - ملخص لبيعات طويلة¹².

وأما عن مضمونها، يتضح لنا ما يلي:

- التأكيد على المنابع والأصول الدينية للبيعة من القرآن والحديث، وارتباطها ببيعات الخلفاء الراشدين، وبيعة الرضوان؛
- التأكيد على أهمية منصب الإمامة «السلطان»، واعتبارها هبة إلهية، لمن اختير لها؛
- التأكيد على النسب الشريف إلى الدوحة المحمدية والافتخار به؛

11 - بيعات للحسن الأول مثل بيعة رودانة وقبائلها، الخزانة الملكية.

12 - انظر كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، «فيما يجب مراعاته عند كتابة البيعة».

• التأكيد على الإجماع الحاصل بين المبايعين للسلطان؛

• الإشارة إلى الفئات المبايعة، وهم في الغالب: العلماء، الأشراف، الأعيان، الخاصة والعامة، الجيش...

وعليه، نخلص إلى أن مضمون نموذج البيعة المتقدم لا يخرج عن الالتزامات الكبرى، الواردة في عقد البيعة الشرعية، وعن القواعد الكبرى التي يضمنها الدستور في العصر الحديث، لذا لا يوجد تناف بين الحياة السياسية بمقتضى البيعة أو بمقتضى الدستور، بل هي رابطة تاريخية متأصلة، وتتجدد رمزيا بأمر المؤمنين كل أسبوع من خلال دعاء الخطيب يوم الجمعة بالسداد والعون على القيام بالمهام الجسام للإمام. فتأتي المناسبة لتأكيد الاستجابة للواجب الديني، الذي هو تجديد البيعة لأمر المؤمنين القائم على حراسة الدين ورعاية مصالح المواطنين.

ثانيا: عيد العرش هوية مغربية راسخة

عيد العرش تاريخيا:

في الثلاثين من شهر يوليوز كل سنة يخلد الشعب المغربي قاطبة، هذه الذكرى المجيدة لاعتلاء صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، عرش أسلافه الميامين، وهي تعيد صورة الملاحم البطولية التي خاضها الشعب والعرش، جنبا إلى جنب، منذ السنوات الأولى للكفاح الوطني من أجل الانعتاق من الاستعمار، وهي مناسبة أيضا طافحة بالرموز والدلالات التي تتجسد فيها أواصر الولاء الدائم والبيعة الوثقى والتلاحم العميق بين الشعب والعرش¹³.

وفي خضم هذا الالتحام والوفاء، تقرر الاحتفال بعيد العرش في ثلاثينيات القرن الماضي، حيث تم الاحتفال بصفة غير رسمية بذكرى عيد جلوس جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف، رحمه الله، على العرش، بتاريخ 18 نونبر 1933م من قبل الشعب الحر الأصيل، الذي كان يواجه الاحتلال الفرنسي ويدافع عن كيان المغرب ووحدته الدينية والترايبية¹⁴، فهو تحدّ لواقع الاستعمار الظالم، ورفض لجميع أشكال الوصاية والحماية.

فكان الشعب منذ بداية الاحتفال به، وإلى حين استقلال المغرب، يرددون شعار: «العرش بالشعب» أو «الشعب بالعرش»، في لحظات عدة، ومنها المشهد التاريخي الرائع، الذي كان فرصة اغتنمها الشعب

13 - انظر: إتحاف أعلام الناس، لمؤرخ الدولة العلوية ابن زيدان العلوي، وكذا تاريخ تطوان للمؤرخ محمد داود، ومجلة الوثائق التي تصدرها مديرية الوثائق الملكية، الرباط.

14 - الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830م - 1920م، عبد الله العروي / ط. 1، 2016، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

للتعبير عن تشبثهم وولائهم للسلطان والعرش العلوي، وذلك لحظة دخول السلطان في زيارة رسمية لمدينة فاس يمتطي صهوة جواده، في موكب مهيب ونادر لتلاحم العرش والشعب، مشهد لم يسبق نظيره في التاريخ.

وأصبح الاحتفاء بعيد العرش اليوم في عهد صاحب الجلالة الملك محمد السادس - حفظه الله - احتفاء تعبيريا عميقا بالحكم الرشيد لجلالته، وبأواصر المحبة والتقدير التي يكنها الشعب المغربي لحفيد أب الحركة الوطنية، ونجل باني المغرب الحديث، لما يسديه جلالته للمغرب من خدمات جليلة ومشاريع رائدة، أعطت ثمارها في ظرف قياسي، جعل المملكة تنعم في رخاء وازدهار وتنمية وتطور على جميع الأصعدة، فقد جاء في أحد خطابات أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس - نصره الله - قوله: «إذا كان من الطبيعي أن يتساءل الإنسان مع نفسه، في كل مرحلة من حياته، فإن إجراء هذه الوقفة مع الذات، تعد ضرورة بالنسبة لخدمك الأول، الذي يتحمل أكثر من 35 مليون مغربي.

ذلك أنني، من منطلق الأمانة العظمى التي أتحملها، كملك لجميع المغاربة، أتساءل يوميا، بل في كل لحظة، وعند كل خطوة، أفكر وأشاور قبل اتخاذ أي قرار، بخصوص قضايا الوطن والمواطنين...»¹⁵.

يتضح إذا، أن هذه الذكرى تأتي كل سنة لتشهد على انخراط المغرب في الخيارات الأساسية يتجلى ذلك في إعطاء جلالة الملك محمد السادس - نصره الله - أوامره السامية لانطلاق العديد من الأوراش التنموية الكبرى، التي يعتبر فيها العنصر البشري نواة أساسية لهذه المبادرات، تحقيقا لتنمية بشرية متوازنة ومندمجة على جميع الأصعدة، سعيا لترسيخ النموذج المغربي المتميز، القائم على قيم الوحدة والتقدم والإنصاف والتضامن الاجتماعي، والمتمسك بهويته العريقة، يقول صاحب الجلالة نصره الله في أول خطاب له في عيد العرش: «إننا نطمح إلى أن يسير المغرب في عهدنا قدما على طريق التطور والحدثة، وينغمر في خضم الألفية الثالثة مسلحا بنظرة تتطلع لآفاق المستقبل في تعايش مع الغير، وتفاهم مع الآخر، محافظا على خصوصيته وهويته، دون انكماش على الذات في كنف أصالة متجددة، وفي ظل معاصرة ملتزمة بقيمنا المقدسة»¹⁶.

إن لعيد العرش رمزية ودلالة استثنائية عن باقي الأعياد الوطنية، فهي مناسبة يُعبر فيها المواطنون عن فرحتهم وتأييدهم وتعلقهم بملكهم، لذا جعلوا لها مجموعة من المراسيم والأنشطة الدالة على أواصر المحبة القوية، وذلك بتزيين كل مدن المملكة وبواديها بالصور والرايات والأضواء، وإقامة بعض الأنشطة الثقافية والعلمية والترفيهية على هامش المناسبة، حتى أضحي الأمر من العادات والتقاليد المشهورة في المملكة.

15 - خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس - نصره الله - بمناسبة عيد العرش، 31 يوليوز 2014م.

16 - خطاب العرش بتاريخ: الجمعة 16 ربيع الثاني 1420هـ / 30 يوليوز 1999م، القصر الملكي العامر بالرباط.

هو فرح يعكس التعلق الدائم واللامشروط برمز الأمة وموحدتها، وباعث نهضتها ورقيتها، احتفالات تشهدها مختلف جهات المملكة، تترجم عواطف المحبة المشتركة، والأهداف الموحدة التي قامت دائما على تقوى من الله ورضوانه، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ رِضَى اللَّهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ يَأْتِيهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾¹⁷.

وعليه، فلا غرابة بعد ما تقدم من الحقائق العلمية والشرعية والمعطيات التاريخية لهذه المناسبة المتفردة لعيد العرش المجيد، أن نجد التجربة المغربية تشد اهتمام العديد من بلدان العالم الإسلامي، بل وتتمدد إلى بلدان أخرى إفريقية، يقول صاحب الجلالة في أحد خطابه لعيد العرش: «إننا حريصون على وضع التجربة المغربية رهن إشارة الدول الشقيقة التي تتقاسم مع المغرب التشبث بنفس المبادئ والقيم الروحية، والتي عبرت عن رغبتها في الاستفادة من النموذج المغربي، كما هو الشأن بالنسبة للتعاون في مجال تكوين الأئمة»¹⁸.

وبناء على ما ذكرناه، يحق للشعب المغربي الاعتزاز بهذه الرابطة المتينة والمميزة للمملكة المغربية، التي تعبر بحق عن التوازن الديني والسياسي التي تعيشه المملكة في ظل مؤسسة إمارة المؤمنين، هذه المؤسسة التي تضطلع بدور محوري في أمن واستقرار المغرب، فهي مؤسسة متجددة متطورة بتطور المتغيرات والأحداث الداخلية والخارجية، تدعو باستمرار إلى الحفاظ على الهوية الثقافية والدينية وحماية التعددية والاختلاف، هي مؤسسة جعلت من المغرب منارة ساطعة أضاءت بإشعاعها وتألقها مختلف أرجاء المعمور.

فعيد العرش، عيد يشهد بناء مغرب متجدد، ناطق بأواصر المحبة والترابط التي تجمع بين القمة والقاعدة في صفحات تاريخية خالدة، صفحات شاهدة على مكانة رفيعة للمغرب، لم يكن ليشهد منافعها دون آصرة قوية تجمع بين العرش والشعب، تجسدها رابطة البيعة الشرعية الدائمة.

17 - الفتح: 18.

18 - خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس - نصره الله - بمناسبة عيد العرش، 31 يوليوز 2014م.

لائحة المصادر والمراجع:

1. صحيح مسلم، دون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت.
2. نور القلوب في معرفة علام الغيوب، تحقيق محمد بن شريفة، ضمن كتابه «الماجريون والحافظ الماجري الكفيف الآسفي (ق. 6 - 7 هـ)»، منشورات «جمعية آسفي للبحث في التراث الديني والتاريخي والفتي»، مطبعة «Safi Graphe»، آسفي، ط. 1، 2009، ص. 113.
3. نور القلوب في معرفة علام الغيوب، أبو الحسن علي الماجري الآسفي: مخطوط محفوظ بالخزانة الحسنية تحت رقم 2336.
4. الأحكام السلطانية، للهاوردي، ت. أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 1427 هـ / 2006 م.
5. مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، ت. دانيال جيماريه، دار الشرق، بيروت، 1987 م.
6. صور من البيعة الشرعية للمولى الحسن الأول: محفوظة بالخزانة الملكية بالقصر العامر بالرباط.
7. «بيعة علماء فاس للسلطان مولاي سليمان، بتاريخ 18 رجب عام 1206 هـ.
8. بيعة فاس وما إليها للأمير إبراهيم بن اليزيد، بتاريخ 9 صفر عام 1236 هـ، خ. س 3 / 12458.
9. بيعة الرباط للسلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، بتاريخ الخميس 19 ربيع الثاني 1238 هـ.
10. الجيش العرمرم، لأبي عبد الله محمد أكنسوس، أحمد بن يوسف الكنسوسي، ط. 1، د. ت، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش.
11. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري السلاوي، دار الكتاب - البيضاء، 1954 م.
12. بيعات للحسن الأول - بيعة رودانة وقبائلها، الخزانة الحسنية.
13. كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، «فيما يجب مراعاته عند كتابة البيعة».
14. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، السخاوي، رقم الحديث 132، ت. عثمان الخشت، دار الكتب العربي، ط. 2، 1414 هـ.
15. إتحاف أعلام الناس، ابن زيدان العلوي، علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط. 1، 1429 هـ / 2008 م.
16. تاريخ تطوان، محمد داود، معهد مولاي الحسن، 1379 هـ / 1959 م.
17. مجلة الوثائق، مديرية الوثائق الملكية، الرباط.

18. الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830م - 1920م، عبد الله العروي / ط.1، 2016، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
19. خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس - نصره الله - بمناسبة عيد العرش، 31 يوليوز 2014م.
20. خطاب العرش بتاريخ: الجمعة 16 ربيع الثاني 1420هـ / 30 يوليوز 1999م، القصر الملكي العامر بالرباط.
21. خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس - نصره الله - بمناسبة عيد العرش، 31 يوليوز 2014م.
22. خطاب العرش بتاريخ: 30 يوليوز 2016م، بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لعيد العرش المجيد.

إمارة المؤمنين ضمان للأمن الروحي والسلم الاجتماعي

• د. رضوان غنيمي

الكلية المتعددة التخصصات بالسمارة

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله صلاة ينتظم في سلكها الشريف أهله الأطهار وصحابته الأخيار، وبعد: فقد اقتضت المشيئة الإلهية أن تُحاط الأمة بمقومات وحدتها وقوتها، فكان من أهم تلك المقومات التي تجتمع عليها هذه الأمة بعد دينها، مؤسسة إمارة المؤمنين، المبايع بيعة شرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ يَبَايَعُونا إِنَّمَا يَبَايَعُونَ اللَّهَ بِمَا يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ إِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فسنواته أجرا عظيماً﴾¹.

وحيث إن الوحدة والائتلاف هي مراد ومبتغى كل المجتمعات والشعوب، فقد حرصت المجتمعات الإنسانية منذ فجر التاريخ على تحقيق هذا المقصد، ودافعت عنه واستماتت في ذلك، فوجدنا الأمم على اختلافها تلتف حول ما تراه مناسباً، للحفاظ على وحدتها، وهويتها، وما يميزها عن غيرها من الأوطان والشعوب، ويحفظ لها خصوصيتها على مستوى الفكر والمنهج والسلوك. وما تعدد المذاهب الفقهية والفكرية والعقدية... وتفرقها بين الأمم والشعوب، إلا دليل جلي على حرص هذه الأقطار على تحقيق الخصوصية، التي تجعلها مستقلة ومحصنة ضد كل ما من شأنه أن يثير النزعات والفتن بين أفرادها.

إن محاولة إبراز القيمة التاريخية والدينية والاجتماعية والروحية السامية لمؤسسة إمارة المؤمنين اليوم، تعتبر ولا شك نافلة من القول اعتبار الدورها الفعال والبارز في حماية أمننا الروحي، والاجتماعي، والسياسي، بل وتهيئة المجال المناسب لممارسة الدين بمختلف ظروفه وأوضاعه، بشكل يضمن الحفاظ على الخصوصية المغربية وتميزها، لكن تحديات المرحلة الراهنة تفرض ضرورة تسليط الضوء على هذا الموضوع، بشكل يجلي حقيقة الحاجة إلى إمارة المؤمنين.

1 - سورة الفتح، الآية: 10.

وقد انتظم عقد هذه الورقة في مقدمة مفاهيمية وثلاثة فروع، تفصيلها كالاتي:

أولاً: مفهوم إمارة المؤمنين والخصوصية المغربية

ثانياً: الحاجة إلى إمارة المؤمنين

ثالثاً: مركزية البيعة الشرعية في إمارة المؤمنين

رابعاً: أثر إمارة المؤمنين في تحقيق الأمن الروحي والسلم الاجتماعي.

أولاً: مفهوم إمارة المؤمنين والخصوصية المغربية

إن إمارة المؤمنين مهمة جليلة شريفة تقتضي القيام على شؤون الرعية بما يصلح دنياهم وأخراهم، وهي أعلى منصب في نظام الحكم الإسلامي، ويسمى أمير المؤمنين بال خليفة، أو ولي الأمر أو السلطان أو الإمام...

الأمير لغةً: من الإمرة، والإمارة: هي كبر الشيء إذا عظم أمره، ومنه قول أبي سفيان كما في الحديث: (لَقَدْ أَمَرَ أُمُّرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ²) يريد رسول الله ﷺ لما رأى من تعظيم هرقل لشأن النبي ﷺ بعد توصله برسائله من دحية الكلبي.

والإمامة لغة: مصدر من أمّ، والإمام كل من ائتم به غيره، وإمام كل شيء قيمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين.³

واصطلاحاً: فقد عرفت بتعاريف كثيرة لا تخرج في مجملها عن معاني الزعامة والرياسة في أمور الدين والدنيا، ومن ذلك ما عرفها به صاحب المقدمة بأنها: "خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا"⁴، وهو المعنى نفسه الذي عرفها به نجيب المطيعي، حيث يقول: «الرئاسة العامة في شؤون الدنيا والدين»⁵.

وهي الإمامة العظمى، وقد اعتبرها علماء العقيدة من أصول الدين، وأدرجها الفقهاء ضمن مباحث الفقه، وكتب الأحكام السلطانية.

2 - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعو إلى الإسلام.

3 - لسان العرب لابن منظور، 24/12، مادة أمم.

4 - مقدمة ابن خلدون، ص: 190.

5 - تكملة المجموع، لمحمد نجيب المطيعي، 191/19.

يقول الماوردي: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"⁶.

أما إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (ت 478هـ)، فعرفها بأنها: "رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا، مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية"⁷.

إن إمارة المؤمنين أساس متين، ودعامة أساسية من دعائم المملكة المغربية الشريفة، وركن ركين من أركان شخصيتها ومقومات ذاتها وهويتها، وهي صيغة شرعية لتنصيب الإمام وتمكينه من الحكم وإدارة شؤون البلاد، وقد درج عليها المغاربة عبر تاريخهم مع حكامهم وأمرائهم وملوكهم. ومنذ عهد الأدارسة (القرن 8م) وإلى قيام الدولة العلوية الشريفة، ورغم التقلبات التي شهدتها عهد كل سلالة حاكمة، فإن استمرارية إمارة المؤمنين بقيت أهم مكون من المكونات الرئيسة التي شكلت على الدوام أساس الدولة المغربية إلى يوم الناس هذا. والسرف في هذه القوة وهذا الثبات، أن إمارة المؤمنين تحمل في طياتها قيما دينية، ومقاصد شرعية، ومبادئ إسلامية، تمتد ظلالها الوارفة على ربوع المملكة فتعُمُّها أمنا وأمانا وسلما وسلاما، أضف إلى ذلك قيامها على أساس شرعي متين، يعتمد قاعدة البيعة الشرعية، التي تقوم بدورها على الرضا المتبادل باعتباره عقدا ملزما لطرفيه.

لقد تضمن الدستور المغربي في فصله 41 إشارة مباشرة إلى الأدوار المهمة التي تضطلع بها إمارة المؤمنين أو الإمامة العظمى، ونصه ما يلي: "الملك، أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية"⁸.

ووفقا لهذا الفصل من الدستور، يكون استمرار مؤسسة إمارة المؤمنين وإعادة بناء وظائفها الدستورية مع مولانا أمير المؤمنين محمد السادس -حفظه الله-، وفي هذه الاستمرارية استمرار الدور الفعال الباني للوطن، والجامع للأمة في زمن المخاطر الجديدة والعديدة، وذلك من خلال الحفاظ على الإسلام السني المالكي الموحد للجماعة، الطابع للشخصية المغربية، حتى أصبح لا ينفك عنها، بل إذا ذكر المغرب تبادر إلى ذهن السامع الأجني مباشرة إمارة المؤمنين وباقي المكونات الدينية والوطنية للشخصية المغربية. وقد أجاد أستاذنا العلامة سيدي محمد الروكي وأفاد -حفظه الله- في بيان كل ذلك، في كتابه القيم "الثوابت الدينية والوطنية للشخصية المغربية".

6 - الأحكام السلطانية للماوردي، ص 5.

7 - غياث الأمم في التياث الظلم - الجويني - تحقيق ودراسة وفهرسة د. عبد العظيم الديب - كلية الشريعة - جامعة قطر - ط 1 - مطابع الدوحة الحديثة - 1400هـ - ص 22.

8 - الدستور المغربي الفصل 41.

ثانياً: الحاجة إلى إماراة المؤمنين

لسنا في هذا المقام بصدد الحديث عن حجية إماراة المؤمنين ولا التأصيل لها، إذ الواقع شاهد على ذلك وتاريخ الحضارة الإسلامية مثبت لذلك مجل له، لكن لا بأس من استعراض سريع لهذه المشروعات كما تناولها علماء هذه الأمة خلفاً عن سلف، وقد أجمعوا على أهميتها وحاجة الناس إليها، يقول المؤرخ القلقشندي (ت 821هـ): "... بها يحفظ الدين ويُحمى، وبها تُصان بيضة الإسلام، وتسكن الدهماء، وتقام الحدود فتُمنع المحارم عن الانتهاك، وتُحفظ الفروج فتُصان الأنساب عن الاختلاط، وتُحصن الثغور فلا تطرق، ويُذاد عن الحرم فلا تُقرع"⁹.

والحقيقة أن إماراة المؤمنين أكبر من مجرد قولنا بالحاجة إليها، لأن التأصيل لها، وبيان شرعية مرجعها، من أكبر الدوافع إلى ضرورة تنبيه الناس إليها حتى يقدروها قدرها، لأن المسألة فيها ترتبط بواجبات شرعية ينبغي تحقيقها، لأنها مترتبة في الذمة شرعاً لا تبرأ منها إلا بعقد القلب عليها، لأدلة منها:

1. أن المتتبع المستقري لكتب الأحكام السلطانية، وعند علماء العقيدة، يتضح له بجلاء أن إماراة المؤمنين شعيرة من شعائر الدين التي يؤجر العامل على إقامتها، وتثبت دعائمها وترسيخ قيمها، كما يَأثم الساعي إلى تعطيلها، يقول العلامة محمد الروكي: «إماراة المؤمنين هي شعيرة من شعائر الدين، العامل على إقامتها مأجور، والساعي إلى تعطيلها موزور، وحفظها في المسلمين واجب شرعي، لأنها الوسيلة إلى حفظ الدين وإقامة شعائره، والحكم بشرائعه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»¹⁰.

2. في بيان عظم مكانتها، وأهميتها في تثبيت دعائم الدين والدولة، يأتي الحكم بالوجوب بدليل الإجماع، كما روي ذلك عن أهل التحقيق من العلماء، فقد حكاه أبو الحسين الماوردي¹¹ في أحكامه السلطانية، حيث يقول: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعَقْدُهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا فِي الْأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالْإِجْمَاعِ»¹².

3. الحكم نفسه ذهب إليه الإمام السبكي رحمه الله في جمع الجوامع حيث يقول: "ويجب على الناس نصب إمام ولو مفضولاً"¹³. ثم علل الإمام المحلي هذا الحكم بالوجوب مبيناً أبعادها وأهدافها،

9 - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري.

10 - الثوابت الدينية والوطنية للشخصية المغربية، للعلامة الدكتور محمد الروكي.

11 - الماوردي: هو الإمام العلامة أفضى القضاة، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي. حدث عنه أبو بكر الخطيب ووثقه، وقال: مات في ربيع الأول سنة خمسين وأربع مائة. وولي القضاء ببلدان شتى. بلغ ستاً وثمانين سنة. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي - تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي - مؤسسة الرسالة - 1413هـ - ط 9 - 18 / 64.

12 - الأحكام السلطانية والولايات الدينية لعلي بن محمد البصري الماوردي، ص 18.

13 - شرح المحلي على جمع الجوامع.

ومدى تحقيقها لمصالح العباد، وحفظ مقاصد الشريعة الخمس، لأن بها تُحفظ الأديان وتُصان المهج وتُحفظ العقول والأعراض والأموال، يقول الإمام المحلي: "يقوم بمصالحهم كسدّ الثغور، وتجييش الجيوش، وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق، وغير ذلك، لإجماع الصحابة رضي الله عنهم حتى جعلوه أهم الواجبات، وقدموه على دفنه ﷺ، ولم يزل الناس في كل عصر على ذلك"¹⁴.

4. وقال التهانوي في كشافه: "هي خلافة الرسول ﷺ في إقامة الدين، وحفظ حوزة الإسلام، بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة"¹⁵.

من خلال ما تقدم تظهر أهمية إمارة المؤمنين في حياة المسلمين، إذا علمنا أنه لا قيام للدين وأحكامه على الوجه الأكمل إلا بها، ولا أمن ولا أمان يرجى إلا بها، ولا رادع للظالمين إلا بها، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما الإمام جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ، وَيُتَّقَى بِهِ»¹⁶. وقال ﷺ: «إن الله ليزع - أي ليردع - بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»¹⁷.

فالقرآن الكريم لا بد له من قوة وسلطان يحميه ويفرضه على الناس، ويرعاه ويتعهده أحكامه وشرائعه.. فالقرآن وسلطان إمارة المؤمنين يسيران جنباً إلى جنب، يؤيد بعضهما البعض، وأيهما يتخلف عن الآخر فإن المسيرة - لا محالة - سيعترها الضعف والنكبات والانتكاسات.

فأمير المؤمنين ظل الله في الأرض؛ والإمارة، والسلطان، والدولة وغير ذلك من معاني الشوكة والقوة كلها تدخل كوسائل مباشرة وهامة لتطبيق شرائع الله تعالى في الأرض، وبه تُحفظ حرمان الدين، وتعلو راياته، ويأمن الناس على مُهَجِّهم، وتُحفظ عليهم أموالهم. ولا شك أن الغاية الجوهرية من كل ذلك تصب في خانة الحفاظ على وحدة هذا البلد، وحفظ هويته وخصوصيته الدينية والوطنية، ولا سبيل لكل ذلك إلا بإقامة إمارة المؤمنين والتمكين لها والالتفاف حولها، والإمامة العظمى تقتضي علاقة شرعية بين الراعي والرعية، وهي علاقة تعرف بالبيعة الشرعية الملزمة والواجبة، فعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حُجَّةَ له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»¹⁸.

14 - المصدر نفسه.

15 - كشاف اصطلاحات الفنون - محمد أعلى بن علي التهانوي - خياط - بيروت - بدون سنة طباعة - 92 / 1.

16 - أخرجه البخاري في صحيحه - 3 / 1080؛ ومسلم في الصحيح - 3 / 1471.

17 - تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي - دار الفكر - بيروت - 1401هـ - 3 / 60.

18 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم 3550.

وهو حديث مبين لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾¹⁹.

فالأصل في دين الإسلام أن التشريع بيد الله عز وجل ورسوله ﷺ، وينوب عنهما فيه من يلي أمر المؤمنين، لهذا تجب له الطاعة، وهي في حقيقة الأمر طاعة لله عز وجل وطاعة لرسوله ﷺ.

ثالثا: مركزية البيعة الشرعية في إمامة المؤمنين

لقد شكلت البيعة الشرعية على امتداد التاريخ المغربي المجيد أهم الركائز التي قامت عليها مشروعية النظام السياسي الذي أبدعه المسلمون، وكانت إمامة المؤمنين إحدى ثمراته، وقد ظلت هذه المنظومة تمثل إطارا جامعاً تلتقي فيه السلطان الدينية والسياسية لدى ملوك المغرب، هذا التناغم بين السلط الذي استمدت منه الحضارة المغربية تفردا وتماساك بنياتها السياسية والاجتماعية لقرون طوال.

ونقصد بالبيعة: إعطاء العهد من المبايع على السمع والطاعة للإمام، في المنشط والمكره والعسر واليسر، وعدم منازعته الأمر وتفويض الأمور إليه، وقد قال ابن خلدون في مقدمته: "أعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمور نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره"²⁰.

يقول العلامة الروكي: «البيعة أسلوب شرعي وصيغة إسلامية لنصب الإمام، وتكون من أهل الحل والعقد من العلماء وغيرهم ممن لهم السلطة والنفوذ في الناس، وقد عرف تاريخ الإسلام وتاريخ المغرب نماذج وصيغا من البيعة لأمراء المؤمنين، تعكس قيم الإسلام ومدى حرصه على جمع الشمل وحفظ النظام وإشاعة العدل والأمن والسلم، وتترتب على البيعة حقوق وواجبات لكل من الإمام والرعية»²¹.

مشروعية البيعة:

تكمن مشروعية البيعة في كونها مستمدة من الكتاب والسنة:

1. دليلها من الكتاب آيات كثيرة منها: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكُمْ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾²²، وقوله تعالى أيضا: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾²³.

19 - سورة النساء، الآية 59.

20 - مقدمة ابن خلدون، ص 209.

21 - الثوابت الدينية والوطنية، ص 59.

22 - سورة الفتح، الآية 10.

23 - سورة الفتح، الآية 18.

2. دليلها من السنة النبوية أحاديث كثيرة منها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد طلب البيعة من أصحابه أكثر من مرة، وأنه أخذها منهم رضي الله عنهم. ووجدنا في السيرة النبوية أن النبي ﷺ قد أخذ البيعة في العقبة مرتين قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، وقبل قيام الدولة الإسلامية الأولى، وكذلك أخذها ﷺ في مناسبات أخرى بعد قيام الدولة الإسلامية. وروى الإمام البخاري من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: «دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله»²⁴.

صور البيعة

المتبع للتاريخ الإسلامي من لدن سيدنا محمد - ﷺ - حتى يومنا هذا، يدرك أن للبيعة صوراً منها:

أ. المصافحة والكلام: وهذه هي الصورة الغالبة في المرات التي بايع فيها الناس النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك بيعة الرضوان الشهيرة.

ب. الكلام فقط: وهذه تكون عادة في مبايعة النساء، ومن به عاهة لا تمكنه من المصافحة، كالمجذوم الذي قال له الرسول ﷺ: «ارجع فقد بايعتك»²⁵.

ج. الكتابة: وأظهر مثال على هذه المبايعة ما كتبه النجاشي إلى الرسول ﷺ، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله ﷺ، من النجاشي، سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هداني للإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فيما ذكرت من أمر عيسى... وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأصحابك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»²⁶.

وقد اعتمد هذا النوع ملوك المغرب، حتى كانت الوثيقة تعلق بضريح المولى إدريس.

رابعاً: أثر إمارة المؤمنين في تحقيق الأمن الروحي والسلام الاجتماعي

لقد ارتضى الله تعالى لهذا البلد تكاملاً واستقراراً على مستوى ثوابته التي عليها قامت عزته، وبفضل التكامل الحاصل بين مكونات الثوابت الدينية والوطنية للمغرب، وهي: المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، والتصوف السني، وإمارة المؤمنين، حصل هذا البلد الأمين أمناً روحياً متميزاً، وسلم اجتماعياً

24 - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس .

25 - أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيعة، بيعة من به عاهة.

26 - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، لابن سيد الناس، ص 330.

لطالما اشرأت إلى الوصول إليه أعناق دول من أقطار مختلفة، حيث كان لثابت إمارة المؤمنين كامل الفضل في رسوخ الهوية الدينية للمغرب، في ضوء وحدة مغربية خالصة؛ في المذهب والعقيدة والسلوك، بشكل متزن ومنضبط بضوابط شرعية، لينعكس كل ذلك على سلوك المغاربة دينيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا. فمنذ قيام الدولة الإدريسية، استمر المغرب تحت قياداته الراشدة في تطوره التاريخي منسجما مع المرجعية الدينية للسلطة السياسية في البلاد، في صورة إمارة المؤمنين، بدلالاتها وهولاتها العقدية، ومقتضياتها الاجتماعية، إلى عهد الدولة العلوية الشريفة، حيث ازدهر هذا المعنى العظيم وازداد قوة ورسوخا ووضوحا. وباعتلاء مولانا أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله عرش أسلافه الأشراف، انطلقت مسيرة جديدة في البناء والإصلاح تجاه القمة، لا يوقفها شيء، ولا يستثنى منها مجال من مجالات الحياة، بشكل قاد المملكة المغربية بحق، لترفل في نعيم ونعمة الأمن والسلم؛ ومن ذلك:

1. تنظيم وتأطير الفتوى وحمايتها من عبث العابثين، خاصة وقد عمت وانتشرت فوضى الإفتاء بين الناس بشكل يبعث على الخوف والقلق، - خصوصا حينما يتعلق الأمر بفتاوى ترتبط بمصير الأمة - ويفرض ضرورة تحصين المجتمع من تبعات هذه الفوضى. وقد أصبحت الأصوات تتعالى بضرورة إقرار الحرية في اتباع عموم المكلفين لأي مجتهد - دون اعتبار لمذهبه -، بل الحق في اختيار الفتوى التي يراها ملائمة لوضعه وحاله الذي هو عليه، وأن على الفقيه والمفتي أن يبسط الأقوال الفقهية المتعددة في النازلة الواحدة ليبقى للمكلف - العامي - حق انتقاء ما يراه مناسبا وملائما له، دون اعتبار لمذهب البلد. ولا يخفى خطر هذا الأمر، مما يستوجب ضرورة الوقوف عنده، خاصة عندما يتعلق باجتهادات فردية من خارج المذهب، بل والبلد، فيما له صلة بثوابت الأمة، ومن شأنه إثارة الفتنة والانقسام بين أفراد المجتمع، وغير ذلك من الأمور التي يتطلب النظر فيها الالتزام بالمذهب، وضرورة الإمام بواقع الناس وأحوال حياتهم، كما هو مقرر عند علماء أصول الفقه، أو تحقيق المناط، كما سماه الإمام الشاطبي، حين قال: «الأفعال لا تقع في الوجود مطلقة، وإنما تقع معينة مشخصة، فلا يكون الحكم واقعا عليها إلا بعد المعرفة بأن هذا المعين يشمل ذلك المطلق أو ذلك العام»²⁷.

وقد تم في هذا الصدد إحداث الهيئة العلمية للإفتاء، وقد تصدّت حقيقة لعدد من القضايا المستجدة، وأصدرت فيها فتاوى حسمت الخلاف، وجعلت بعد ذلك قانونا يضمن للناس أمنهم اجتماعيا، كما هو الحال في فتوى إخراج زكاة الفطر بالقيمة، وفتوى صلاة العيد في ظل تداعيات الحجر الصحي

27 - الموافقات في أصول الأحكام لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، 93\4.

الذي فرضته جائحة كورونا، وإحداث اللجنة الشرعية للمالية التشاركية... وفي كل ذلك مواكبة لحركة المجتمع، واشتغال وانشغال بما يعترضه.

2. إخراج ميثاق العلماء للواقع، وهي طفرة كبيرة تروم الرفع من مستوى القائمين بالحقل الديني، من خلال التنسيق بين وزارة الأوقاف والمجلس العلمي الأعلى.

3. العناية الخاصة والتميز لحملة كتاب الله داخل الوطن وخارجه، وإحداث مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف.

4. إحداث مديرية التعليم العتيق.

5. إحداث معهد القراءات والدراسات القرآنية.

6. إحداث قناة محمد السادس للقرآن الكريم، وكذلك إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم.

ففي الوقت الذي عصفت فيه الاهتزازات والقلاقل بمقومات السياسات المعاصرة لعدد لا يستهان به من الدول والحكومات، وما نتج عن ذلك من فقد للسلم والأمن وإزهاق للأرواح وضياع للأموال، حافظ المغرب بحمد الله على استقراره في أمن وأمان، ووحدته ووثام، تحت القيادة الرشيدة لمولانا أمير المؤمنين، وفي ذلك بيان لأهمية مؤسسة إمارة المؤمنين، التي تبقى السند القوي والمظلة التي ينعم أهلها بأمنهم الروحي، وهم يشعرون أن عقيدتهم في حمى أمير المؤمنين، وسلمهم الاجتماعي القائم على عقد البيعة الذي يطمئنهم على أن حقوقهم محفوظة لهم، كيف لا وإمارة المؤمنين تحفظ التعددية والاختلاف داخل المغرب.

خاتمة

إن إمارة المؤمنين ولا شك ثابت ودعامة أساسية وجب على المغاربة عموماً معرفته والوعي به، والالتزام بمقتضاه، إلى جانب باقي الثوابت الدينية، لأن الواقع أثبت أنها ثوابت ذات قيمة دينية وحضارية، وذات مصداقية شرعية، لأنها نابعة من الدين الرباني. فلا وجود للمغرب الحر، إلا في أحضانها، ولا بقاء له ولا استمرار له ولا عزة ولا كرامة ولا أمن، إلا بتشبته بهذه الثوابت الدينية والوطنية.

قول العلماء في الثوابت الدينية للمغرب: إمارة المؤمنين نموذجا

● د. منير روكي

أستاذ باحث - برشيد

ترتبط البيعة في المغرب بنظام إمارة المؤمنين ارتباطا وثيقا، ويتم في هذا النظام التعاقد على تبادل الحقوق والواجبات من خلال عقد البيع؛ ذلك أن لنظام إمارة المؤمنين في المغرب مرجعية دينية وتاريخية وله أيضا أثره السياسي. فالمغاربة عندما يتحدثون عن البيعة فإنهم يتحدثون عن إمارة المؤمنين، والأمور هنا مرتبطة وليست منفصلة ومستقلة.

والبيعة حسب العلامة علال الفاسي في كتابه الحركات الاستقلالية: هي ذلك العقد الرابط بين الملك والشعب. يخرج بنظام الحكم من الملكية المطلقة إلى ملكية دستورية. وهي رمز للنظام السياسي في المغرب المنبثق من الأصول الإسلامية والقائم في عقده بين طرفين هما السلطان و«الرعية» وذلك بعد مباركة أهل الحل والعقد (العلماء) لهذا الاتفاق¹.

و بالرجوع إلى مختلف المصادر التي تبحث في البيعة نجد أنها تنصب كلها على المعاهدة والمعاهدة التي نظمها الإسلام وذكرت في عدة آيات قرآنية للتأكيد على أهميتها وأهمية العهد الذي تتضمنه، قال تعالى في محكم كتابه: ﴿إِن الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾². والبيعة إذن هي أن الملك باعتباره أمير المؤمنين يتعاقد ويعاهد الأمة على أن يحكم بالحق والعدل وأن يرفع أحكام الشريعة ويصون مبادئ الدين وأن يوفر للمواطن حقوقه الأساسية وحماية متطلبات عيشه وتأمينها. في المقابل يقوم المواطن نيابة عن ذاته بالتعبير عن طاعة الملك ويتعهد بنصرته في حماية مصالح الأمة والدفاع عن حقوقها وثوابتها. فهذا المفهوم يتماشى والدستور المغربي عبر تطوره التاريخي والمتمثل في الفصل 19³.

1 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة، 1980، ص 121.

2 - سورة الفتح، الآية: 10.

3 - جنداري إدريس، مفهوم البيعة بين المرجعية الدينية والتأويل السياسي: قراءة في السياق المغربي، وجهة نظر: مجلة تعنى بقضايا السياسة والفكر. - ع. 55، 2013م، ص. 8-13.

وإمارة المؤمنين ليست بعدا مفاهيميا مرتبطا بالحكم في المغرب فحسب، بل هي استراتيجية مفاهيمية وتاريخية متعددة الأبعاد، يوطرها التاريخي والديني والمجتمعي عبر توارث منسجم مع المجتمع المغربي الذي ينشد الوحدة بما هو نسيج متعدد المشارب الانتمائية التي لا يوحدتها أصل عرقي، فالهوية المغربية الأمازيغية والعربية والصحراوية والأندلسية والإفريقية تنصهر في تعاضد عرقي وتاريخي تحت وحدة تسمى المفرد بصيغة الجمع تحت راية إمارة المؤمنين⁴. وهو توجه مجتمعي أجمعت الأمة بمقاصدها وتجلياتها بناء مصالحة مفاهيمية نسجها الماضي لتثمر في حاضر يعد التعدد مكسبا مجتمعا لدولة المغرب. وهذا ما جاء به دستور 2011م وخاصة في ديباجته؛ إذ يؤكد أن المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة. ويضيف الفصل 3 منه على أن الإسلام دين الدولة والدولة تضمن لكل واحد ممارسة شؤونه الدينية. ويؤكد كذلك الفصل 41 منه بأن الملك أمير المؤمنين وحامي الملة والدين والتضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية. فهذا الإطار العام للدستور المجسد لعقد البيعة يحدد شكل الدولة وطبيعة النظام السياسي ونمط الحكم، وهو أن الدولة المغربية ذات طبيعة دينية يتولى تدبير شؤونها أمير المؤمنين⁵. «كما أن هذا الدستور يوطد معالم دولة مدنية فيها مواطنون أحرار متساوون في الحقوق والحريات ويشكلون مصدر السلطات التي يفوضونها لمن يارسونها بالنيابة عنهم في إطار نظام ملكية دستورية وديمقراطية واجتماعية وبرلمانية. حيث ينص الفصل 2 من دستور 2011م على أن: «السيادة للأمة تمارسها مباشرة بالاستفتاء وبصفة غير مباشرة بواسطة ممثليها».

أولا: حكم إمارة المؤمنين

نصب الإمام فرض واجب على المسلمين، وهذا باتفاق الأئمة والأمة، لا ينازع في ذلك إلا مبطل أو صاحب هوى، وإجماع الصحابة رضي الله عنهم بعد موت النبي ﷺ على نصب الإمام قبل الاشتغال بدفنه ﷺ، دليل قاطع على أنه من أهم الواجبات.

وقد حكى الإجماع على ذلك أهل التحقيق من العلماء، ففي الأحكام السلطانية لأبي الحسين الماوردي: «وعقدتها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع...»⁶.

4 - الرحموني، عبد العزيز، رابطة البيعة وأثرها في الوحدة الوطنية، ضمن: حكم إمارة المؤمنين وحكمتها ومقاصدها، المفهوم الشرعي للبيعة وإمارة المؤمنين: [أعمال الأيام الدراسية التي نظمها المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق/ الفنيدق بدار الثقافة بالمضيق، 2009م. - المضيق: المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق/ الفنيدق، 2010م، ص 54-67.

5 - حمدون، عبد الخالق، مفهوم البيعة وأبعادها الدينية والحضارية في الفكر الحسني / دعوة الحق - ع. 378، 2004م، ص. 84-93.

6 - أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دراسة وتحقيق محمد جاسم الحديثي، بغداد: مطبعة المجمع العلمي، 2001م، ص: 5.

بل قال الإمام أبو عبد الله القرطبي المالكي - رحمه الله تعالى - في "تفسيره" عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁷: "هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة..."⁸.

وقال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني - رحمه الله تعالى - في كتابه الممتع "غياث الأمم في التياث الظلم" المعروف بـ "الغياثي": "فنصب الإمام عند الإمكان واجب. وذهب عبد الرحمن بن كيسان - يقصد الأصم - إلى أنه لا يجب، ويجوز ترك الناس أخياراً⁹، يلتطمون اثتلاًفاً واختلافاً، لا يجمعهم ضابط، ولا يربط شتات رأيهم رابط، وهذا الرجل هجوم على شق العصا، ومقابلة الحقوق بالعقوق، لا يهاب حجاب الإنصاف، ولا يستوعر أصواب الاعتساف، ولا يسمى إلا عند الانسلاخ عن ربة الإجماع، والحيد عن سنن الاتباع، وهو مسبوق بإجماع من أشرقت عليه الشمس شارقة وغاربة، واتفاق مذاهب العلماء قاطبة"¹⁰.

وقال العلامة ابن خلدون: "إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين"¹¹.

ومن الأدلة على وجوب نصب الإمارة والإمامة :

1. أن الشرع المطهر علق أحكاماً كثيرة بالإمام، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصِيعُوا اللَّهَ وَأَصِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾¹².
2. ومنه قوله ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»¹³. فكيف يأمر - تعالى - بطاعة أولي الأمر، وليس وجوده واجباً؟ وكيف يموت - من يموت وليس في عنقه بيعة - ميتة جاهلية، والإمام ليس واجباً وجوده؟
3. قال أبو داود في "سننه": باب في القوم يسافرون، يؤمرون أحدهم. وأخرج فيه عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر، فليؤمروا أحدهم»¹⁴.

7 - سورة البقرة: الآية 29.

8 - شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (1/ 264)، ط1 - دار الفكر، بيروت، ط، 1407هـ - 1987م.

9 - مختلفين.

10 - أبو المعالي الجويني، غياث الأمم، بتحقيق: د. عبد العظيم الديب، مطبعة نهضة مصر، ط. 2، 1401هـ، ص 22.

11 - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: د. درويش جويدي، المكتبة العصرية صيدا - بيروت، ط 2، 1420هـ - 2000م، ص 179.

12 - سورة النساء: الآية 58.

13 - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، رقم 1851.

14 - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - الباب المذكور، رقم 2608.

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم».

وبناء على هذه الأدلة الشرعية وغيرها، فإن حكم نصب الإمام الوجوب، وتولي الإمامة فرض على الكفاية، إذا قام به من تحصل به الكفاية، سقط الإثم عن جميع الأمة.¹⁵

ثانياً: الحكمة من إمامة المؤمنين

تستمد إمامة المؤمنين مشروعيتهما من إجماع علماء الإسلام من عصر الصحابة والتابعين وأهل السنة والمرتبة والشيعية والمعتزلة... قال ابن حزم في كتاب الفصل: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرتبة، وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ».

ولا خلاف أن الإجماع حجة قطعية يقينية على وجوب الإمامة بعد رسول الله - ﷺ - وفي كل عصر إذ لا يصلح الناس فوضى لا قادة لهم ولا رؤساء:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم *** ولا سراة إذا جهّاهم سادوا

ويستند هذا الإجماع إلى إشارات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد ذكر الماوردي: «إن الشرع جاء بتفويض الأمور إلى ولي في الدين، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾¹⁶. وروى هشام بن عروة عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «سيأتيكم بعدي ولادة، فيليكم البر بربه والفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق فإن أحسنوا فلکم ولهم، وإن أساؤوا فلکم وعليهم».

وفي ذلك يقول إمام الحرمين الجويني في «غياث الأمم»: «ولا يرتاب من معه مسكة من عقل أن الذب عن الحوزة، والنضال دون حفظ البيضة محتوم شرعا، ولو ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع، ولا يزعهم وازع ولا يردعهم عن اتباع خطوات الشيطان رادع، مع تفنن الآراء، وتفرق الأهواء لانتشر النظام، وهلك الأنام، وتوثبت الطغام والغوام، وتحزبت الآراء المتناقضة، وتفرقت الإرادات المتعارضة، وملك الأرذلون سراة الناس وفضت المجامع، واتسع الخرق على الراقع، وفشت الخصومات، واستحوذ

15 - الغليزوري، توفيق، حكم إمامة المؤمنين وحكمتها ومقاصدها، المفهوم الشرعي للبيعة وإمامة المؤمنين. [أعمال الأيام الدراسية التي نظمها المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق/ الفينيدق بدار الثقافة بالمضيق، 2009م. - المضيق: المجلس العلمي المحلي لعمالة المضيق/ الفينيدق، 2010م، ص. 25-37.

16 - سورة النساء الآية: 58.

على أهل الدين ذووا العرامات¹⁷، وتبددت الجماعات، ولا حاجة إلى الإطباب بعد حصول البيان، وما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن¹⁸.

ويقول العلامة ابن خلدون: "الملك منصب طبيعي للإنسان، لأننا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم. وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض، ويمانع الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة، وهي تؤدي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس، المفضي ذلك إلى انقطاع النوع، وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافضة، واستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم"¹⁹.

وإن شئت مثالا واضحا ترى فيه هذه الحقيقة نصب عينيك، فاعتبر في هذا العصر -مثلا- بـ "إشارات المرور": كيف تنظم هذه "الإشارات" سير الناس بسياراتهم، فإذا حصل عطل في هذا الضابط الحاكم رأيت شريعة الغاب ترفع أعلامها، فلا تسأل عن المقاحات الشديدة بين قائدي السيارات، كل منهم يريد أن ينفذ الأول، لا فرق في ذلك بين متعلمهم ومثقفهم، وبين جاهلهم وسوقيهم، حتى إذا أصبحت السيارات -جميعها- ككتلة واحدة، بدأ السباب والشتام، وقد يرتقي إلى المقاتلة والضرب ونحوه، حتى يجيء شرطي المرور، فيحتاج وقتا لتنظيم هذا السير، وفك ذلك الاختناق.

فما بالك بالبلد الذي لا سلطان فيها يحكم أمرها، ويسوس أهلها، فيمنع المظالم، وينصف أصحاب الحقوق وينظم أحوال الناس في معاشهم...؟ لا ريب أنه سيكون مسرح فوضى، وفلاة سباع²⁰. ولهذا قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "لا يصلح الناس إلا أمير: بر أو فاجر". قالوا: يا أمير المؤمنين هذا البر، فكيف بالفاجر؟ قال: "إن الفاجر يؤمن الله -عز وجل- به السبل، ويجاهد به العدو، ويجيء به الفيء، وتقام به الحدود، ويحج به البيت، ويعبد الله فيه المسلم أمنا، حتى يأتيه أجله".²¹

17 - العرامة: الشراسة والشدة. من عرم فلان: إذا صار ذا شراسة وشدة.

18 - غياث الأمم، ص: 23 - 24.

19 - المقدمة، ص 175.

20 - انظر الدكتور عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم، معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة الفرقان، عجمان، الإمارات العربية المتحدة، ط 6، 1422هـ-2001م، ص 65.

21 - أخرجه وكيع في أخبار القضاة، 1/ 21، ط الاستقامة، 1366هـ، والبيهقي في شعب الإيمان، 13/ 187.

وهذا الكلام الذي هو أنفس من الذهب، إنما صدر عن خليفة راشدي، من أعلام الصحب الكرام، وفقهائهم الأعلام، الذي عانى في فترة خلافته من تفرق المسلمين واختلافهم، ثم هو خلاصة تجربة من بلغ أعلى مراتب السياسة الشرعية، وأجل مقامات الولاية.

ثالثاً: مقاصد إمارة المؤمنين

جماع مقاصد الإمامة وإمارة المؤمنين ما ذكره ابن خلدون في بيان حقيقة هذا المنصب وهو: «أنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به»²².

وقد أوجب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من العدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي عنه ﷺ أنه قال: «السلطان ظل الله في الأرض». وقال بعض السلف: «ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان».

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَفَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾²³.

وقال عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَغْلِبَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَغْلِبَ الْكَافِرِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمْ وَالْكَافِرِينَ لِيَرْضَوْهُمُ وَلِيَبْدِلَنَّهُمْ مِنْ بَعَدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾²⁴.

فتحصل أن مقاصد الإمامة وإمارة المؤمنين، تتمثل في مقصدين عظيمين :

الأول: القيام بدين الله تعالى.

والثاني: القيام بما يصلح الدنيا على وفق ما جاء به الشرع المطهر.

ذلك لأن مقصد الشريعة الأعظم تنظيم مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم في الدين والدنيا، فلم تفرط في بعض ما يحتاجه الناس في المعاش والمعاد ومن زعم ذلك فقد كذب القرآن، وضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسرانا مبيناً، قال تعالى: ﴿مَا جِئْنَا بِكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾²⁵ وقال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾²⁶.

22 - المقدمة، ص 178.

23 - سورة الحج، الآية 39.

24 - سورة النور، الآية 53.

25 - سورة الأنعام، الآية 39.

26 - سورة النحل، الآية 89.

وقد بين العلماء كثيرا من المقاصد الرئيسة للإمامة في الشريعة الإسلامية، ما بين مطول ومختصر، وألف العلامة صديق حسن خان القنوجي المتوفي سنة 1307هـ، كتابا في هذا الباب سماه: "إكليل الكرامة في تبيان مقاصد الإمامة"، ولكنني رأيت الإمام أبا المعالي الجويني إمام الحرمين قد أجمل جل هذه المقاصد وعبر عنها بالمهمات بكلمة مختصرة جامعة في كتابه النفيس "غياث الأمم في التياث الظلم"، فقال رحمه الله: «الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا، مهمتها: حفظ الحوزة، ورعاية الرعية (...) وكف الخيف -أي الاختلاف- والخيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين وإيفاؤها على المستحقين...»²⁷.

جهود أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله في حفظ الأمن الروحي

● ذ. أنس عبد الهادي الحسيين

أستاذ باحث - تطوان

مقدمة :

تاريخ الإنسانية مليء بالذكريات والأحداث، التي تنبع من مبادرات مجتمعية على مدار الدهر، هي محطات يتوقف عندها الإنسان بتبصر وحكمة، لكي يستشرف منها جملة من العبر والدروس، لينبني من خلالها المستقبل. وما تخليد الشعب المغربي ذكرى تربع أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله على عرش أسلافه الميامين، إلا صورة مشرقة تزين صفحات هذا البلد بمداد من الفخر والاعتزاز، وهو احتفال يربط الماضي بالحاضر لبناء مستقبل زاهر.

أولاً: دلالات الاحتفال بعيد العرش المجيد

يحمل الاحتفال بعيد العرش المجيد حولة دينية وتاريخية، ودلالات رمزية، وقد كان للوطنيين المغاربة دور كبير في تخليد ذكراه السعيدة، وتعود جذوره من مبادرة صدرت من شباب وطنيين متحمسين، كانوا يقاومون الاستعمار الفرنسي والإسباني، ويدافعون عن الوحدة الترابية والدينية للمغرب، فكان من ثمار خطواتهم الاحتفال بشكل غير رسمي بذكرى اعتلاء السلطان سيدي محمد بن يوسف العرش بتاريخ 18 نوفمبر 1933م. وقد شهدت عدة مدن بالمغرب، تأسيس لجان لتنظيم حفلات تليق بهذا الحدث التاريخي وبدلالاته. وعلى الرغم من ممانعة السلطات الفرنسية لهذا الاحتفال الوطني، اضطرت الإقامة العامة الفرنسية إلى التكريس القانوني لهذا اليوم، وحددت يوم 18 نوفمبر 1934م، كتاريخ للاحتفال الرسمي بأول عيد للعرش، مستحضرين فيه عيد بيعة الرضوان، التي بايع فيها الصحابة الكرام رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم، يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين، إنهم يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً﴾¹. وعلى هذا

1 - سورة الفتح، الآية 18.

المنهج القويم، انعقدت إمارة المؤمنين بالمغرب، التي يضطلع بها أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله على أحسن وجه. فنظام البيعة في أعراف وتقاليد مغربنا الغالي، يرتكز أساسا على مبدأ توثيق الحقوق والواجبات المتبادلة بين العرش والشعب، والمنسوجة دائما بخيوط الحب والتسامح والمساواة والصدق والأمانة والوفاء... أليس ذلك كله مدعاة لأن يحتفل الشعب المغربي الأصيل بذكرى عيد العرش المجيد، احتفالا يلبس ثوب العزة والكرامة، يصاحبه الرجاء والتفاؤل في استشراف مستقبل فياء بالعطاء؟ وهنا نستحضر ما تشكله الملكية بالنسبة للمغاربة، فهي ليست ضرورة في الحكم السياسي المغربي فقط، بل هي التزام ديني في رقبة كل مواطن مغربي، وثابت مقدس ينزل منزلة الدين ووحدة الوطن، بل مؤتمنة على الدين، وضمانة لوحدة البلاد واستمرارها ومصالح العباد وصونها².

والحقيقة أن هذه المناسبة السعيدة، التي نحتفل بها في كل سنة هي من الأهمية بمكان، يتوارثها جيل بعد جيل، فهي من باب الذكريات الضاربة جذورها في تاريخ المملكة المغربية، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَذَكَرْ، فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾³.

إن الاحتفال بعيد العرش السعيد، الذي نخلده في كل سنة، هو مناسبة للوقوف على ما تحقق في عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله منذ اعتلائه العرش يوم 30 يوليوز 1999م من عطاءات وإنجازات، وفي جميع الميادين الثقافية والسياسية والتعليمية والاجتماعية والقانونية والدينية والتنمية والرياضية. وهذه المسيرة التنموية الشاملة، التي لا تزال تسير عليها المملكة اليوم، إنما هي انعكاس لسياسة الأمل منذ عهد محرم المغرب، الملك محمد الخامس طيب الله ثراه، ومن بعده مبدع المسيرة الخضراء الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، وسار من بعدهما في هذا النهج ابنهم البار في النماء والإعمار أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله، الذي يعمل بكل جد وتخطيط محكم وعلى جميع المستويات، ومن أجل إرساء مزيد من الديمقراطية وتكريس الحق والعدل. كما أن جلالة الملك محمد السادس - نصره الله - لم يأل جهدا لتمكين شعبه في جميع أرجاء مملكته من العيش الكريم، وهذا ما تحدث عنه جلالته في خطابه لسنة 2006م: "إن علينا كأمة عريقة التاريخ أن نؤمن إيمانا قويا بصواب اختيارنا، وأن نعتز أشد ما يكون الاعتزاز بما نخطوه من خطوات ثابتة على درب التنمية والديمقراطية... وعلى الفاعلين الجمعويين والاقتصاديين، أن يعطوا المثال بالتزامهم الصادق بقضايا الأمة وطموحاتها، وبانخراطهم الموصول في الأوراش التنموية للبلاد...".

2 - ذكرى أفتوش، منجزات الملك محمد السادس في 20 سنة من الحكم، الجزء الأول، ط / 1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص: 5.

3 - سورة الذاريات، الآية 55.

يؤكد الواقع أن سياسة أمير المؤمنين نصره الله، ومنذ تحمله المسؤولية، ما فتئ يقوم بحركة إصلاح شاملة، يمضي فيها على مراحل، يخترق فيها الحصون المنيعة، لا يتخذ القرارات قبل نضجها وإنضاجها⁴، وهو بذلك تبني سياسته على ثنائية الحس الاستباقي في الطرح والقوة في التصدي للملفات الشائكة، التي أصبحت تقلق كثيرا من المجتمعات من خلال تفشي الفكر المتطرف، الذي ينعش الحركات الإرهابية، لذا جعل جلالة الملك محمد السادس أعزه الله من الأمن الروحي، أولوية الأولويات للحفاظ على استقرار المغرب وسلامته من كيد الكائدين ومكر المخادعين ونجد خطب ورسائل جلالة الملك، تعبر بجلاء عن حرص جلالته على أن يكون ديننا الحنيف بمنأى عن الأفكار المنحرفة، التي تتلاعب بالعقول، وتهدر الزمن في مناقشات وسجلات عقيمة لا تنفع الناس، يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الزُّبَىٰ فَبَشِّرْهُ بِبُكَاءٍ﴾، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض⁵.

والدارس لتاريخ المملكة المغربية الشريفة، سيقف على تاريخها المشرق، فقد ساهمت بأزاهير التسامح والتعايش الحضاري الإنساني من شعب عظيم، احتضن على أرضه برحابة صدره العودة فيه وافدا من بلاد الحرمين، وهو المولى إدريس، الرجل الفقيه، والعالم والسياسي. ونظرا لمكانته العلمية ونسبه الشريف، فقد بايعه المغاربة على سنة الله ورسوله يوم الجمعة 4 رمضان سنة 172هـ، الموافق 6 فبراير 789م بمدينة ويلي، فتبنى الاتجاه السني والمذهب المالكي. ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت الأمة المغربية تتشكل، وتبرز خصوصياتها، ولعل أبرزها التثبث بإمارة المؤمنين، كنظام للحكم، وتدبير الشؤون الدينية والدنيوية، لا يقبلون بديلا له، ولا يبغون عنه حولا، مع الأخذ بالمنهج الصحيح، الذي رسمه أهل العلم والمعرفة، الذي لا يتعارض مع مقاصد الشرع الحنيف⁶.

ثانيا: مكانة الأمن الروحي في السياسة الملكية

حرص أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس مع بداية حكمه المتنور على جعل بعض القضايا مصيرية لشعبه الوفي، وأنها بمثابة أمن من قبيل الأمن المائي والغذائي والطاقي والروحي، وهو من أبرزها، لما فيه من إذكاء للروح الدينية والوطنية في السلوك الفردي وفي الحياة العامة. فآثاره هامة تعمل على تحقيق الطمأنينة والسكينة لدى الفرد والمجتمع عبر ممارسة الشعائر الدينية وفق ما نص عليه إجماع الأمة من اختيار للمذهب والعقيدة والسلوك⁷، ومن نتائج ذلك نبذ العنف والتطرف واجتناب المحرمات والكبائر

4 - عبد الهادي بوطالب، نصف قرن في السياسة، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001م، ص: 348.

5 - سورة الرعد، الآية 19.

6 - زكرياء أقنوش، منجزات الملك محمد السادس في 20 سنة من الحكم، الجزء الأول، ط/ 1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص: 5.

7 - محمد إدريسي توراجتي، إمارة المؤمنين، دعامة للأمن الروحي، مجلة دعوة الحق، عدد 397، السنة الثالثة والخمسون، شعبان 1431هـ، الموافق 14 يوليوز 2010م، ص: 26.

والابتعاد عن حرمة الغير، ومن نتائجها أيضا تربية الإنسان ليكون مطيعا لخالقه، صالحا في المجتمع، نافعا لنفسه ولأهله ولوطنه، وبهذا يعم السلام ويسود الوئام، ويحصل الرخاء المجتمعي. وهنا يبرز ما لإمارة المؤمنين من مكانة، التي تعود إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث انقسم الفقهاء في تأصيلهم لضرورة السلطة بين مرجعي العقل والشرع، فمبرر العقل يستند إلى كون مصلحة بني آدم لا تتم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رئيس، ومبرر الشرع يجعل من إمارة المؤمنين دينا وقربة يتقرب بها إلى الله عز وجل⁸.

وقد أعطى جلالة الملك محمد السادس نصره الله لإمارة المؤمنين بعدا عميقا مزج بين البيعة والدستور وبين إمارة المؤمنين، والملك والمواطن، وفي هذا يقول جلالته: "إني أحاطبك بصفتي أميراً للمؤمنين مؤتمنا على قيادتك في البيعة والدستور، كما أتوجه إليك باعتباري ملكا مواطنا أستشعر الانشغالات الحقيقية لكل مغربي ومغربية من خلال تفقدي الميداني لأحوالهم وهو ما يجعلني حريصا في نفس الوقت على التوجهات الكبرى والانشغالات اليومية للمغاربة قاطبة"⁹.

وفي ضوء ما سبق، فإن الخطابات الملكية السامية تعتبر مهيكلًا وموجها للسياسة الدينية بالمغرب، فهي آلية حافظة وضبطية، تنغيا حفظ الدين من التطرف وإضفاء طابع القدسية على المجال الديني، وتحصينه من أية مزایدات، سواء أكانت عرقية، أو طائفية، أو عقائدية. والتوجهات الدينية الملكية السامية لها مظاهر، فجلالة الملك محمد السادس حين يتحدث عن الأمن الروحي، يستحضر الأركان الثلاثة، التي يتأسس عليها أمننا الروحي من خلال المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني، فهذه الأركان هي ما جاءت على لسان ابن عاشر في نظمه.

في عقد الأشعري وفقه مالك *** وفي طريقة الجنيد السالك

1. المذهب المالكي

يعد المذهب المالكي من الركائز الأساسية للدولة على الرغم من عدم التنصيب على المذهب المالكي في الدستور، إلا أنه من الأسس الأساسية للدولة، كالعلم والنشيد الوطني والعملية، التي تعد من مكونات المملكة المغربية¹⁰.

8 - عباس بوغالم، المؤسسة الملكية والمسألة الدينية بالمغرب، أطروحة لنيل الدكتوراه في الحقوق، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، السنة الجامعية، 2008-2009م، ص: 14

9 - محمد السادس، ملك المغرب، الخطاب الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى الثامنة لتربع جلالته على عرش أسلافه المنعمين، انبعاث أمة، الجزء 57، القسم الثاني، منشورات القصر الملكي، المطبعة الملكية الرباط، السنة 2007م، ص: 120.

10 - عبد الهادي التازي، المذهب المالكي كشعار من شعار الدولة المغربية، ندوة تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 25 - 26 - 27، أبريل 1980م، الجزء الأول، ص: 87.

ومن المعلوم، أن المغاربة اختاروا منذ أربعة عشر قرناً المذهب المالكي مذهباً رسمياً للدولة إضافة إلى اختيارات الأمة المتمثلة في العقيدة الأشعرية والتصوف السني. وقد أشار الناصري إلى أن المذهب المالكي هو من أوائل المذاهب التي دخلت إلى المغرب الإسلامي، ومنه المغرب الأقصى، وهو الذي يعود إلى النصف الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، من خلال تبنيه من قبل العديد من الفقهاء والعلماء¹¹. ونجد جلالة الملك محمد السادس، يقول في أول افتتاح للدورة الأولى لأشغال المجلس العلمي الأعلى، بتاريخ فاتح جمادى الثانية 1426هـ، موافق 8 يوليوز 2005م، ما يلي: «وفي هذا السياق قررنا أن تكون فاتحة أعمال المجلس العلمي الأعلى تكليفه طبقاً لما يراه من رأي فقهي متنور بتوعية الناس بأصول المذهب المالكي، ولا سيما في تميزه بالعمل بقاعدة المصالح المرسلّة، التي اعتمدتها المملكة المغربية على الدوام لمواكبة المتغيرات في مختلف مناحي الحياة العامة والخاصة من خلال الاجتهادات المتنورة لأسلافنا الميامين ولعلمائنا المتقدمين، وهذا الأصل، الذي تقوم عليه سائر الأحكام الشرعية والقانونية المنسجمة والمتكاملة، التي تسنها الدولة بقيادتنا كملك وأمير المؤمنين في تجاوب مع مستجدات العصر، والتزام بمراعاة المصالح، ودرء المفساد، وصيانة الحقوق وأداء الواجبات». ومما أضافه جلالة الملك أعزه الله، قوله: «فقد تمسك المغاربة على الدوام بقواعد المذهب المالكي المتسم بالمرونة في الأخذ بمقاصد الشريعة والانفتاح على الواقع، وعملوا على إغنائه باجتهاداتهم، مؤكدين بين ملائمة اعتداله لروح الشخصية المغربية المتفاعلة مع الثقافات والحضارات».

إن هذا الركن الأساسي في حماية الأمن الروحي وجد مكانته بالمغرب، الذي يتبعه المغاربة، ويعتزون به وبإمامه منذ قرون خلت، بحكم أنه مذهب علمي يعتد بالواقع، ويأخذ بأعراف الناس، وعاداتهم. ففقهه فقه عملي أكثر منه نظري، فقه مرن يسير العصر والواقع دون تكلف أو تعقيد، وهو أكثر المذاهب الإسلامية أخذاً بالاجتهاد والتجديد¹²، وهو الذي يمتاز برحابة صدره وانفتاحه على غيره من المذاهب الفقهية والشرائع السماوية، واعترافه بالجميع، واستعداده للتعايش معه والاستفادة منه، إلى جانب سماحته والتيسير في أحكامه وآرائه، وهو ينهل من الكتاب والسنة. وإضافة إلى ما سبق، فإن المذهب المالكي يقوم بالقياس ويجذب الأخذ بالرخص، ويكره الأخذ بغرائب الأقوال وشواذ الأحكام. كما أن هذا الفقه، يعد من أعمق المذاهب الفقهية فهماً لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها وأبعادها.

وما إعادة نشر كتاب «فتح الفتاح على مختصر خليل في الفقه المالكي» على عهد جلالة الملك محمد السادس - نصره الله - إلا تأكيد لإمامة المملكة المغربية وريادتها للمذهب المالكي والاجتهاد فيه، وغناها في التعاطي مع النوازل والمستجدات.

11 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج/ 1، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1955م، ص: 137.

12 - عبد الغفور الناصر، المرجعيات المالكية بالمغرب: المغرب نموذجا، أشغال الندوة الدولية الأكاديمية المنعقدة أيام 26-28 بفاس 2008م، المجلد الثاني، ص: 347.

وبالجملة، فإن تعلق المغاربة بالمذهب المالكي، وانتشاره يرجع بالأساس إلى ملاءمته لطبيعة المغرب، فهو مذهب عملي يعتمد الواقع ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم، ويتفادى التأويلات البعيدة والمتكلفة والشوائب، التي تسربت إلى الدين في الأمصار الأخرى.

2. العقيدة الأشعرية

حرص جلاله الملك محمد السادس أيده الله على تحقيق الأمن الروحي للمغاربة، وتحدث عن الإسلام وتشبثه به كدين للدولة، وأكد على وحدة العقيدة الأشعرية، حفاظا على تميز الحقل الديني المغربي في مواجهة كل التيارات الدخيلة، التي تحاول اختراق النسيج المجتمعي المغربي دينيا وسياسيا، عبر التشيع أو التنصير، قال حفظه الله: «لقد كان المغرب خلال تاريخه الحافل المجيد حصنا منيعا وقلعة عالية للإسلام، وإننا لحريصون على أن يبقى كما كان البلد، الذي يتمثل فيه الدين راسخا قويا باعتباره أساس مكونات هويتنا ومقومات شخصيتنا في تشبثنا بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية وطريقة السلوك السني»¹³.

ومما ينبغي التنبيه عليه، هو أن العقيدة الأشعرية أسهمت في خلق انسجام مذهبي وعقدي في المغرب، أبعد عنه كثيرا من القلاقل والفتن، التي كانت تقع في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي بسبب الخلافات العقدية، فدخلوها إلى المغرب لم يكن حدثا عابرا، وإنما تميز بكونه عرف تأصيلا وترسيما وتطورا، انطلاقا من القرن الخامس الهجري مع أبي عمران الفاسي بعد أن تتلمذ في المشرق على يد أبي الحسن الأشعري¹⁴.

3. التصوف السني

إن أمير المؤمنين جلاله الملك محمد السادس نصره الله شديد الحرص على أن يجعل من التصوف السني ركيزة لتوطيد دعائم الأمن الروحي، كما كان الحال مع والده طيب الله ثراه الملك الحسن الثاني، حيث نجد جلاله الملك محمد السادس في رسالته المقدمة إلى لقاءات سيدي شيكو العالمية للمنتسبين إلى التصوف، المنعقدة في 10 شتنبر 2004م بمراكش، يقول: «وما تزال المملكة المغربية منذ أن أشرق على أهلها نور الإيمان، قائمة برعاية السالكين إلى المقامات العليا، من أهل الإحسان، المخلصين في العمل، المتخلصين من الأهواء والأغراض، الصادقين في التعلق بالسنة المحمدية، المتعقلة قلوبهم برب العالمين، الواضعين نصب أعينهم قول جدنا المصطفى الكريم، عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم: (أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب). فهو لاء الذين ابتكروا على نهج السنة المحمدية، طريقة

13 - منشورات المجلس العلمي الأعلى، دجنبر 2006م، ص: 155.

14 - خديجة كهايسين، العقيدة والتصوف في فكر محمد بن علي أوزال، مع ترجمة وتحقيق بحر الدموع، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2016م، ص: 45.

في التربية الأخلاقية، حملهم علمهم بوحدانية ربهم، وإيمانهم بالله، على التمرن بالاجتهاد، على السير في دروب الإخلاص، وعلى كيفية المراقبة والمداومة على صدق التوجه لبارئهم، إرادة لوجهه الكريم، في كل ما يأتون وما يتركون»¹⁵.

وغني عن البيان أن للتصوف بالمغرب مكانته الخاصة، وموقعا فريدا، يصعب تجاوزه، أو الحديث عن شيء يهم أرض المغرب دون ذكره. وتأثير الإمام الجنيد على التصوف المغربي غير خفي. والتصوف واضح في الحياة المغربية من خلال ميادين كثيرة مثل أسماء المدن والأبواب، وأسماء القرى والدواوير، وحتى الخطاب اليومي في قاموسه مفردات، تنهل من القاموس الصوفي.

وقد تأسست الشخصية الصوفية المغربية المستقلة بالتركيز على السلوكي العملي، الذي يغلب عليه الطابع السني الملتزم بالكتاب والسنة، كحد أدنى من الممارسة الصوفية، ومبتعدا في ذات الوقت عن التيارات المغالية، أو الفلسفية، حتى يوسع من نفوذه ويوطن أركانه، وتطمئن إليه العامة والخاصة.

إن هذا الركن، الذي يشكل إحدى الدعامات الثلاث للأمن الروحي بالمغرب، هو إلى جانب أبعاده الثقافية والتاريخية والدينية، يساهم في حفظ المجتمع من كل انحرافات دينية. وتعد الزوايا إحدى أبرز مؤسساته المحورية داخل المجتمع المغربي، وهي من ثمار وسطية التصوف¹⁶، لما قامت به من أعمال، إذ كانت فضاء لتحصيل العلوم الدينية، والنهل من المعارف وتعلمها، كما عملت على تطبيق الشرع ودعوة الناس إلى اتباع التعاليم الدينية، وهي إلى جانب ذلك، قدمت خدمات اجتماعية في دعم المحتاجين، من دون أن ننسى ما قامت به في ميدان الجهاد، عندما كانت القوى الاستعمارية المعادية للمغرب تتربص به للاستحواذ على أرضه وخيراته.

وما دامت الزوايا تشكل لبنة من لبنات التصوف السني بالمغرب، فإن أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس دام له العز والنصر لا يدخر أي جهد في أن تبقى هذه المؤسسة الدينية شامخة، لا تتوقف في القيام بعدة أعمال، ومنها تهذيب السلوك، وحماية المجتمع من كل مؤثرات خارجية بعيدة عن الكتاب والسنة.

15 - خطب صاحب الجلالة محمد السادس المتعلقة بالحقل الديني، منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية، سلسلة نصوص ووثائق، عدد 147، التشريع المتعلق بالأوقاف والشؤون الإسلامية، ط / 1، السنة 2007م، ص: 49

16 - التصوف الإسلامي، نحو رؤية وسطية، المؤسسة العربية للنشر، لبنان، ط / 1، 2017م، ص: 156.

خاتمة

إن السياسة الرشيدة التي سنّها أمير المؤمنين حفظه الله منذ تربعه على عرش أسلافه المنعمين في مجال تأهيل الحقل الديني، كان لها الأثر الإيجابي في الحياة الدينية بالمغرب، من خلال ما قام به ويقوم به جلالته أيده الله من إصلاحات شاملة وكبيرة، والتي هي السبيل الوحيد في أن يحافظ هذا البلد الأمين على وحدته العقائدية في عالم مضطرب، تغذيه تضارب المصالح الاقتصادية والسياسية والأمنية العالمية. وما العناية الملكية الخاصة بالأمن الروحي للمغاربة، إلا دليل على بعد نظره الثاقب في أن يبقى بلدنا الحبيب في منأى عن كل أشكال التطرف الديني، الذي لم يعد يستثني أي مجتمع. فمصير الحالمين بزعة أمننا الروحي لن تكون له قائمة، ما دام هذا الشعب العظيم يتشبث بثوابته الدينية، ومسيح بسياج من الوحدة والتضامن والتعاون المشترك، تحت لواء أمير المؤمنين جلاله الملك محمد السادس أيده الله بنصره.

البيعة وفق التصور الإسلامي السني

● ذ. هشام المتوكل

أستاذ باحث - مكناس

إن البيعة من أهم المسائل الفقهية والعقدية التي حظيت بعناية خاصة من قبل العلماء تأليفاً وشرحاً، وذلك لاتصالها بأمر عظيم الشأن هو إمامة المؤمنين، التي تعد ثابتاً أصيلاً من ثوابت المغرب الدينية والوطنية.

فما معنى البيعة؟ وما أدلة مشروعيتها وفق التصور الإسلامي السني؟

أولاً: دلالة البيعة عند العلماء

البيعة لغة: مشترك لفظي، وردت في لغة العرب بمعان عدة، فهي إحدى معاني (ب ي ع). وباع الشيء يبيعه بيعاً و(مبيعاً) شراه. وهو شاذ وقياسه (مباعاً)، و(باعه) أيضاً اشتراه، وباعه من البيع والبيعة¹. وهو في اللغة مقابلة شيء بشيء، قال تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾². ومن معانيه الفداء، قال الله تعالى: ﴿يوم لا بيع فيه﴾³، وهي تطلق على المواثيق قال تعالى: ﴿إن الكين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾⁴. وهي من أسماء الأضداد، فنطلقها على الشيء وضده. ونقصد به الشراء، ذلك أن العرب تقول: بعت الشيء، بمعنى اشتريته. وها هو الراغب الأصفهاني يزيد شارحاً: "البيع إعطاء المثلث وأخذ الثمن، والشراء إعطاء الثمن وأخذ المثلث، ويقال للبيع الشراء، وللشراء البيع"⁵. قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وشروا بثلث نفوس﴾⁶، أي باعوه⁷. وفي الصحاح للجوهري: "بعت الشيء شريته، أبيعه

1 - مختار الصحاح، للرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر. مكتبة لبنان. بيروت. 1986م. ص: 71.

2 - البقرة. الآية: 274.

3 - إبراهيم. الآية: 33.

4 - الفتح. الآية: 10.

5 - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. مطبعة الحلبي. مصر 1381هـ. 1961م. ص: 67.

6 - يوسف، الآية: 20. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ص: 21/3.

7 - عقد البيع في الفقه الإسلامي، لأحمد النجدي. الناشر: بدون. 1996م. ص: 4.

بيعا ومبيعا، وهو شاذ وقياسه مباحا⁸. وفي معجم ألفاظ القرآن: "البيع مبادلة مال بمال، فيقال: بايعه يبيعه...، ويستعمل ذلك أيضا في المعاهدة لما فيها من مبادلة الحقوق"⁹.

والبيعة: الصفقة على إيجاب البيع، وعلى المبايعة والطاعة. وفي الحديث أنه قال: "ألا تبايعوني على الإسلام". هو عبارة عن المعاهدة، والمعاقدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه، وطاعته ودخيلة أمره¹⁰. وكذلك عقد البيعة، الذي هو عهد على الطاعة في المنشط والمكره¹¹. إذا، فالبيعة هي المعاقدة والمعاهدة على الطاعة لولي الأمر¹².

بحسب هذا التصور فإن كلمة البيع والبيعة، يبعث على تصور عدة معاني منها:

أ- وجود طرفين متعاقدين.

ب- وجود شيئين قابلين للتبادل، يتبادلها طرفا العقد.

ج- توفر الإيجاب والقبول من طرفي العقد.

كما أن المتصفح لكتب السياسة الشرعية، والأحكام السلطانية¹³، يجدها تزخر بالعديد من التعريفات المتعلقة بالبيعة، صنفها الطريقة الشرعية لاختيار الإمام ونصبه. فالونشريسي عرف البيعة باعتبار صدورها من أهل الحل والعقد، شرط استجماعهم للشروط المؤهلة، التي لخصها في العلم بشروط الإمامة، والعدالة والحنكة والرأي، وهما المؤديان للمقصود، واختيار من هو الأصلح للناس، وأقوم للمصالح¹⁴. أما ابن خلدون¹⁵، فعرفها باعتبارها صادرة من أفراد الأمة إلى الإمام¹⁶، فهي بذلك ذات أساس تعاقدية، يستمد الحاكم منها سلطاته وفق التزامات محددة، بعضها منصوص عليه في أحكام الشريعة، والآخر توافقي بين أطراف العقد¹⁷.

8 - الصحاح، للجوهري إسماعيل بن حماد. طبعة دار العلم للملايين. بيروت. (د. ت). ص: 1189/3.

9 - معجم ألفاظ القرآن، إعداد مجمع اللغة العربية. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة. 1390 هـ 1970 م. ص: 141/1.

10 - لسان العرب، لابن منظور، إنتاج المستقبل للنشر الإلكتروني. دار صادر للطباعة والنشر. بيروت. 1995 م. (مادة عقد). ص: 26/8.

11 - المقدمة، لابن خلدون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. 1423 هـ. 2003 م. ص: 205.

12 - البيعة في الفكر السياسي الإسلامي، لمحمد الخالدي. مكتبة الرسالة الحديثة. عمان. 1405 هـ. 1985 م. ص: 18.

13 - أنظر على سبيل المثال الأحكام السلطانية للهاوردي والفراء، كتاب الولايات، مآثر الإنافة.

14 - كتاب الولايات: 2. فتح العليم الخلاق في شرح لامية الزقاق، لأبي عبد الله ميارة الفاسي، تحقيق رشيد البكاري، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، 1469 هـ، 2008 م، ص: 141.

15 - المقدمة: 205.

16 - الإمام لغة هو كل من ائتم به القوم، وأصبح هذا اللفظ، عند إطلاقه لا يقصد به إلا الإمامة الكبرى، ولا ينصرف إلى غيرها، إلا إذا أضيف إليه ما يدل على ذلك. وقد استعمل هذا اللفظ في المغرب الأقصى، منذ دخول الأدارسة أواخر القرن الثاني الهجري. انظر البيعة والخلافة في الإسلام، لأحمد بن شقرون. مجلة الإحياء، ع2. 1985 م. ص: 84.

17 - السلطة السياسية ونظام الحكم في الفقه الدستوري الإسلامي، دراسة في الأصول والممارسة، لعبد المجيد بوكير. مكتبة دار السلام. الرباط 2011 م. ص: 73.

فالقلقشندي عرّفها بقوله: "أن يجتمع أهل الحل والعقد،... فيعقدوا الإمامة لمن يستجمع شرائطها"¹⁸، ويزيد الباقلاني مؤكداً: "إنما يصير الإمام إماماً، بعقد من يعقد له الإمامة من أفاضل المسلمين، الذين هم أهل الحل والعقد، والمؤمنين على هذا الشأن، لأنه ليس لها طريق إلا النص أو الاختيار. وفي فساد النص، دليل ثبوت الاختيار، الذي نذهب إليه"¹⁹. بينما جعل البغدادي طريق ثبوتها: "الاختيار من الأمة، باجتهاد أهل الاختيار منهم، واختيارهم من يصلح لها"²⁰ وقد دعم الفراء هذا التوجه فقال: "إذا اجتمع أهل الحل والعقد على الاختيار، تصفحوا أحوال أهل الإمامة، الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً. فإذا تعين لهم من بين الجماعة، من أداهم الاجتهاد إلى اختياره، وعرضوها عليه، فإن أجاب إليها، بايعوه عليها، وانعقدت له الإمامة ببيعتهم، ولزم كافة الأمة الدخول في بيعته، والانقياد لطاعته"²¹. ويسمي الماوردي الفئة المخولة بعقد البيعة دون غيرها، "أهل الاختيار، الذين تقوم بهم الحجة، وبيعتهم تنعقد للخلافة"²²، وفي موضع آخر يقول: "فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار، تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً، ومن يسرع الناس إلى طاعته، ولا يتوقفون عن بيعته"²³.

أما ابن خلدون، فعرفها بقوله: "اعلم أن البيعة، هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده، جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد. فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة، مصدر باع. وصارت البيعة مصافحة بالأيدي. هذا مدلولها في عرف اللغة، ومعهود الشرع"²⁴. وزاد القلقشندي: "إن البيعات جمع بيعة، وهي مصدر بايع فلان الخليفة فبايعه مبايعة، ومعناها المعاهدة والمعاهدة، وهي مشبهة بالبيع الحقيقي"، ثم أضاف ناقلاً عن ابن الأثير قائلاً: "كأن كل واحد منهم باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه، ودخيلة أمره"²⁵.

18 - مآثر الإنافة: 39 / 1.

19 - الخلافة وشروط الزعامة عند أهل السنة والجماعة، ليوسف أيش. دار الحمراء للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع. بيروت. 1423هـ. 2003م. ص: 59.

20 - أصول الدين، للبغدادي، منصور بن عبد القادر بن طاهر التميمي. دار الكتب العلمية. بيروت. 1981م. ص: 279.

21 - الأحكام السلطانية للفراء: 24.

22 - الأحكام السلطانية للماوردي: 17.

23 - نفسه: 7-8.

24 - المقدمة: 205. الخلافة وشروط الزعامة: 102.

25 - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي أحمد بن علي. تحقيق محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. 1408هـ. 1997م. ص: 273 / 9.

وفي ارتباط بمدلول البيعة ذهب صلاح الدين بسبوني إلى أنها "عقد بين طرفين، ... فالإمام طرف، والجماعة الإسلامية الطرف الآخر. والخلافة هي موضوع البيع..."²⁶. إذ البيعة عقد وكالة، يراقب على أساسه الموكل الوكيل على تصرفه ويحاسبه، فإن أحسن استمر في ولايته، وإلا عزله وباع غيره.

من خلال ما سبق، يتضح أن البيعة تعني اتفاق الخاصة، وموافقة العامة على اختيار الإمام. ذلك أن البيعة تتم بعد اختيار أهل الحل والعقد، وعلى الرعية بعد ذلك التسليم والطاعة، لذلك كانت بيعة الانعقاد المبرمة من طرف أهل الحل والعقد، هي التي تجسد السلطان الحقيقي، لا بيعة الطاعة التي يقوم بها عموم الناس بعد ذلك²⁷.

إذا فعقد الإمامة يتم إذا انعقدت البيعة من طرف أهل الاختيار، وتكون بيعتهم حينئذ بيعة انعقاد. أما بيعة من عداهم فتكون بيعة طاعة، أي بيعة انقياد²⁸.

وبذلك فإن البيعة وفق هذا النسق، تنقسم إلى مرحلتين، وهما: بيعة خاصة وبيعة عامة.

أ- البيعة الخاصة: يقوم بها أهل الحل والعقد من الأمة، وهي بمثابة إعلان الموافقة منهم على شخص الإمام. وهي متقدمة على البيعة العامة زمنًا واعتبارًا.

ب- البيعة العامة: وتتلو البيعة الخاصة، وتكون من قبل عامة المسلمين. وهي عبارة عن إعلان للولاء والطاعة²⁹.

فالبيعة في جوهرها وأصلها- والقول لمحمد مبارك-: "عقد وميثاق بين طرفين: الأمير أو الإمام... والجمهور. أما هو فيبايع على الحكم بالكتاب والسنة والنصح للمسلمين، وأما الجمهور المبايع فعلى الطاعة في حدود طاعة الله ورسوله"³⁰. فالبيعة عقد التزام بين طرفين: الإمام والمبايعين، وهو قول ابن العربي. فيلتزم الإمام بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه، ويلتزم المبايعون بالسمع والطاعة، فإذا حاد عن التزامه، جاز لهم عصيانه، وإذا عصوه مع التزامه، قاتلهم على ذلك³¹.

26 - الفكر السياسي عند الماوردي، لصلاح الدين بسبوني. دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة. 1983م. ص: 189، 190.

27 - نشأة الفكر السياسي عند العرب، حفريات في مسلمات الفكر السياسي، لمحمد علي الكبيسي. دار الفكر. دمشق. 1426 هـ. 2005م. ص: 47.

28 - المقصود ببيعة الطاعة، بيعة عامة للمسلمين، لمن تمت له بيعة الانعقاد، ولا يشترط فيها أن تكون من الكافة، بل يكفي ظهور الانقياد، والتسليم للخليفة، وهي سلوك سياسي للتعبير عن الخضوع. أنظر البيعة في الفكر السياسي الإسلامي: 129-131.

29 - البيعة في النظام السياسي الإسلامي، وتطبيقاتها في الحياة السياسية المعاصرة، لأحمد صديق عبد الرحمن. مكتبة وهبة. دار التوفيق للطباعة. القاهرة. 1988م. 1408 هـ. ص: 24.

30 - نظام الإسلام، الحكم والدولة، لمحمد مبارك. دار الفكر. بيروت. 1401 هـ. 1981م. ص: 30.

31 - القيس في شرح موطأ بن أنس، لابن العربي المعافري، دراسة وتحقيق محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص: 1162/3. أحكام القرآن، لابن العربي المعافري. باعثناء محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص: 27/1، 9/2.

وعموماً، فقد أصبح مصطلح البيعة، يطلق مجازاً في حال إظهار الرضا بالإمام. فإذا ما أطاعه الناس وانقادوا له، فحينئذ يقال مجازاً: إنهم بايعوه، لأن البيعة واجب من الواجبات السياسية للرعية، وهي دعامة أساسية لسلطانها، وتمثل وجهاً من وجوه عملها السياسي.

ثانياً: أدلة مشروعية البيعة

من اليقينيات أن الدلالة على مشروعية المفاهيم وتأصيلها، يكون مستنبطاً من مصادر التشريع. فالبيعة تستمد مشروعيتها وإلزامية وجوبها، من ثلاثة مصادر وهي: القرآن، والسنة والإجماع.

وأدلة مشروعية البيعة من كتاب الله، آيات محكمات، تدل بوضوح وجلاء على وجوب البيعة، حيث قال تعالى: ﴿إِن اللّٰهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةُ يَفْتَخِرُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَلَىٰ ذَٰلِكُمْ هُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الله 2 بايعتم به وذلك هو العِزُّ الْعَظِيمُ﴾³².

كما أن الله سبحانه وتعالى، قد تولى وضع السياج الواقعي للبيعة في متون التفكير السياسي الإسلامي، وحماها من كل ما يمكن أن يقلل من قدرها، أو يفتت بناها، حيث اعتبر سبحانه وتعالى نكث البيعة من الكبائر، فيقول: ﴿إِن الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾³³. كما في نفس السورة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾³⁴. وقال جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللّٰهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزِينْنَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَيِّئَانٍ يَغْتَرِبْنَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ وَلَا يَعْنِينَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾³⁵.

فالدليل واضح من خلال هذه الآيات على وجوب البيعة للأئمة.

كما نظرت السنة أيضاً لمسألة البيعة، من خلال بيان ماهيتها. إذ أكدت في أكثر من موقف، على أنها التجسيد الحقيقي لإثبات حق الرعية في نصب الحاكم، وأنها بالبيعة تخلع عليه مظاهر المشروعية.

32 - التوبة. الآية: 112.

33 - الفتح. الآية: 10.

34 - الفتح. الآية: 18.

35 - الممتحنة. الآية: 12.

ويبدو من خلال الأثر، أن البيعة، عقد شرعي، بين الرعية مصدر السلطان، وبين الحاكم إمامها³⁶. فقد روي عن عبادة بن الصامت: «بايعنا رسول الله على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره... وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان»³⁷.

فهذه الرواية تدل بجلاء على مسألتَي البيعة والطاعة السياسيّتين، باعتبارهما من مظاهر تسليم الرعية، الحكم والسلطان للإمام.

وهكذا، أخذت هذه البيعة صورة العقد السياسي بأركانه الأساسية، أي المبايع والمبايعين. فالبيعة بهذا الشكل تعتبر القاعدة الصلبة التي تقوم عليها العقود، ومنها تستمد وجودها ومشروعيتها، وبدونها لا يترتب عليها أي أثر من آثارها الشرعية أو العرفية.

أما الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن ابن حازم: «قاعدت أبا هريرة خمس سنين، فسمعتة يحدث عن النبي (ﷺ) فقال: ستكون خلفاء فتكثر. قالوا: ما تأمرنا؟ قال فوا بيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقوقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»³⁸، فيدل على أن الذي يسوس أمر الرعية يجب الالتزام ببيعتة، التزاما بالقاعدة الفقهية، «ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به، فهو واجب». فالشرع قد حث على الوفاء بالبيعة، وأمر بها، لورود النص بصيغة الأمر، مقترنا بقرينة جازمة.

إن ظاهر الأحاديث السابقة، يدل صراحة على وجوب مبايعة الإمام، من قبل الرعية، وهو السبيل الذي من خلاله يتم إضفاء الشرعية على نظام الحكم، وتحويل السلطان الصلاحية لممارسة المهام.

ومن المعلوم أن الإجماع مصدر من مصادر التشريع، يلزم المسلمين، كما يلزمهم النص. وقد انعقد الإجماع بين المسلمين على وجوب ومشروعية البيعة، اعتبارا لإجماع السلف، رضي الله عنهم أجمعين، وجهور أهل السنة، والفرق الإسلامية³⁹. ويعبر عن ذلك ابن حزم بقوله: «لقد اتفق جميع أهل السنة، وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج، على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويوليهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله، (ﷺ)»⁽⁴⁰⁾. أما ابن خلدون

36 - نظام الحكم في الإسلام، من خلال تفسير آيات بينات من القرآن الكريم، للحسن السائح. دار نشر المعرفة. الرباط. 1421هـ - 2000م. ص: 10، 11.

37 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني. دار الفكر. بيروت. 1993م. كتاب الفتن. ص: 494 / 14.

38 - صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم النيسابوري. تح. نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة. دار طيبة. الرياض. 1427هـ - 2006م ص: 894 / 2، حديث رقم 1842.

39 - نظرية الخروج في الفقه السياسي الإسلامي، لكامل علي إبراهيم الرباع. دار الكتب العلمية. بيروت. 1425 هـ - 2004م. ص: 25.

40 - الفصل في الملل والنحل: 4 / 149.

فيقول: «إن نصب الإمام واجب، وقد عرف وجوبه بالشرع، وإجماع الصحابة والتابعين ... ولم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام. وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل، وأن الإجماع الذي وقع، إنما هو قضاء بحكم العقل فيه»⁴¹.

ويتبين هذا الإجماع كذلك، من الدليل المتواتر، الذي ثبت من إجماع السلف بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على امتناع خلو الوقت من إمام يقيم الدين ويسوس الدنيا، حتى قال أبو بكر في خطبته المشهورة: «ألا إن محمدا قد مات، ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به»⁴²، فسارع الكل إلى تصديقه، والإذعان إلى قبول قوله، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين، ولا تقاصر عنه أحد من أرباب الدين.

وهذا كلام الفاروق، في معرض حديثه عن الأسباب التي دعته، أي الصحابة، إلى الإسراع بمبايعة أبي بكر، حيث قال عمر: «فارتفعت الأصوات - يعني يوم السقيفة - وكثر اللغط. فلما أشفقت من الاختلاف، قلت لأبي بكر: أبسط يدك أبايعك. فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون وبايعه الأنصار»⁴³.

إن هذا الإجماع لم يكن وليد ظرفية طارئة، وإنما كان إجماعا من رجال يدركون واجبات الإسلام، وشرائعه وأحكامه، من استحالة خلو الوقت من إمام يسوس أمر المسلمين، ويقيم فيهم أحكام الدين.

فالفكر السليم والعقل الفطن، يقضيان بأن يتولى أمر المسلمين إمام يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم عند التنازع، وهذا الوجوب يلخصه ابن خلدون: «وإذا تقرر أن هذا المنصب واجب بإجماع، فهو من فروض الكفاية. وذلك راجع إلى اختيار أهل العقد والحل، فيتعين عليهم نصبه، ويجب على الخلق جميعا طاعته»⁽⁴⁴⁾.

من خلال ما سبق، نرى أن البيعة واجبة شرعا، وأنها الطريق الأسلم لتولي منصب الإمامة، إذ إن القرآن الكريم، والسنة النبوية، زيادة على إجماع الصحابة، أصلوا لمشروعية البيعة بأجل معانيها، وجعلوا لها الضمانات الكفيلة برعايتها، باعتبارها الطريقة الشرعية لتولي السلطان والحكم.

بذلك فالإمامة واجبة شرعا، وعقلا، ولذلك، قيل حول أهمية السلطان: «فهو زمام الأمور، ونظام الحقوق، والقطب الذي عليه مدار الدين والدنيا... فالملك هو الأساس، والرعية هم البناء»⁽⁴⁵⁾.

41 - المقدمة : 190.

42 - المواقف، لعصم الدين الإيجي، عبد الرحمان بن أحمد بن عبد الغفار. تح عبد الرحمان عميرة. دار الجيل. بيروت. 1997م. ص: 395.

43 - تاريخ الرسل والملوك، للطبري أبو جعفر محمد بن جرير. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة 1963م. ص: 200/3.

44 - المقدمة: 191. الأحكام السلطانية للهاوردي: 6. البيعة في الفكر السياسي الإسلامي: 134.

45 - رونق التعبير في حكم السياسة والتدبير، لابن السكالك العاملي. تحقيق سليمان القرشي. دار الكتب العلمية. بيروت. 1424هـ. 2004م. ص: 23.

ومنه: ما حكم البيعة للإمام الذي بايعه خاصة المسلمين وعامتهم؟ فهل حكم تلك البيعة، الوجوب أم غيره؟ هل يلزم جميع الرعية البيعة للإمام حتى تتم، فإذا تركها أحدهم أثم؟ أم إنها فرض كفاية، إذا قام بها البعض - كأهل الحل والعقد - أو قرابته أو أهل بيته أو أتباعه ومواليه - سقطت عن بقية الناس⁴⁶؟ أم هي على الاختيار، من شاء بايع، ومن شاء ترك، ولا شيء عليه؟

من خلال استعراض آراء فقهاء الإسلام، نجد أغلبهم قد أجمع على كون البيعة، وتنصيب الأئمة، فرضاً على الكفاية⁽⁴⁷⁾، يقول القلقشندي: "وهي واجبة على الكفاية، إن لم يقيم بها أحد، أثم الناس"⁴⁸.

ويقرر الونشريسي في كتابه (الولايات)، ما يلي: "أما ولاية الخلافة والإمامة العظمى، فحكمها الوجوب على الكفاية"⁴⁹. أما الداني في (الرسالة الوافية)، فيزيد: "وإقامة الإمام مع القدرة والإمكان، فرض على الأمة، لا يسعهم جهله والتخلف عنه. وإقامته إلى أهل الحل والعقد من الأمة، وفرض إقامته من فروض الكفاية، فإذا قام به البعض، سقط عن الباقي"⁵⁰. وأما الماوردي فيقول: "فإذا ثبت وجوبها، ففرضها على الكفاية، كالجهاد وطلب العلم. فإذا قام من هو أهلها، سقط فرضها على الكفاية"⁵¹.

فالإمامة ليست من الفروض العينية، وإنما هي من الفروض الكفائية، التي تجب على أهل الحل والعقد وأهل الإمامة، "وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الإمامة حرج ولا مأثم"⁵²، فالوجوب لازم فقط على هؤلاء، حتى يبايع أحدهم.

فحق انتداب الإمام، لم يكن مطلقاً مخولاً لجميع الرعية، وإنما هو مقصور على فئة محددة منها، وهي أهل الحل والعقد. فإذا قاموا بها، سقط فرضها عن عموم الناس، بل وجب عليهم الدخول في البيعة.

46 - الخلافة وشروط الزعامة: 23.

47 - البيعة في الفكر السياسي الإسلامي: 134.

48 - مآثر الإنافة: 1 / 30.

49 - كتاب الولايات: 2.

50 - الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة، في الاعتقادات وأصول الديانات، للداني أبي عمرو عثمان بن سعيد. المكتبة الإسلامية. القاهرة. 2001م. ص: 53، 54.

51 - الأحكام السلطانية للماوردي: 6.

52 - الأحكام السلطانية للماوردي: 6.

المسيرة الخضراء السلمية بيعة شعبية للعرش العلوي المجيد من أجل تحرير الصحراء المغربية

ذ. عبد المجيد محزوم

أستاذ باحث - وادي زم

بين المغرب والصحراء روابط تاريخية :

تعود الروابط بين المغرب والصحراء إلى أكثر من ألف سنة، تاريخ وجود الصنهاجيين بهذه المنطقة وتعتبر قبائل صنهاجة أولى القبائل التي سكنت الصحراء، حيث كانت تعيش وتتنقل بماشيتها بين جنوب المغرب وبلاد شنقيط، وهي العادة التي تميز عادة حياة أهل الصحراء القائمة على التنقل والترحال من مكان إلى آخر بحثا عن الكلاء والعشب لماشيتها، فبعد قيام دولة الأدارسة وصل القائد الحبيب بن أبي عبيدة إلى الصحراء عام 720م للدعوة إلى المولى إدريس، وعين بعده عبد الله بن إدريس عاملا على الصحراء، فحفرت الآبار ونظمت الأحوال وانتشرت الدعوة الإسلامية في كل ربوع الصحراء المغربية، وازدهرت بذلك حياة الإنسان فيها.

وبعد انهيار دولة الأدارسة، أصبح لهذه القبائل الأمازيغية نفوذ قوي في منطقة الصحراء بفضل تحكمها في طرق القوافل التجارية التي تعبر الصحراء، ونظرا للدور السياسي والعسكري الذي تلعبه هذه القوافل آنذاك توسع نفوذ قبائل صنهاجة إلى داخل البلاد، وهو ما أدى إلى قيام دولة المرابطين عام 799م، بعد ذلك توافد على الصحراء المغربية وعلى فترات متلاحقة العديد من الأقوام كالمعاقلة والأنصار والشرفاء وغيرهم والذين أقاموا بالصحراء وامتزجوا بسكانها الأصليين الصنهاجيين.

وباستثناء القبائل المنحدرة من أصول صنهاجية والتي تعربت بعد اختلاطها بعرب المعقل، فإن جل القبائل الأخرى التي تكونت في الصحراء بشكل أو بآخر لها روابط تاريخية مع المغرب، نظرا لكون أغلب أجدادها وزعمائها الروحيين نزحوا من داخل المغرب وكلهم أحفاد بعض الأولياء والصالحين المنتسبين إلى البيت النبوي الشريف، الذين عاشوا في المغرب ودفنوا في عدة مناطق منه، فجَدُّ قبائل الركيات الولي الصالح سيدي أحمد الركبي هو أحد أحفاد الولي الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش الذي قتل بجبل «العلم» ودفن هناك سنة 1228م. وحسب بعض الروايات فسيدي أحمد الركبي ازداد سنة 1594م بمنطقة

الخرويجة على ضفاف وادي درعة، وهو ما يدل على استقراره رفقة أهله بهذه المنطقة لفترة زمنية معينة قبل نزوحه إلى الصحراء التي سيشكل فيها أكثر تجمع قبلي بعد أن التفت حوله فصائل الشبانات واعتبرته جدّها الأسمى. وقد توفي سيدي أحمد الركيبي في منتصف القرن السابع عشر ودفن بوادي الحبشي قرب السمارة، كما توجد أيضا روايات أخرى تختلف عن هذه الرواية.

أما بالنسبة لجدّ قبيلة «يكوت» الولي الصالح سيدي رحال البودالي مؤسس الزاوية الرحالية، فقد ولد سنة 1840م تقريبا، وينحدر أصله من «تمدولت»، وقبر والده سيدي البودالي يوجد بمحاميد الغزلان، ومن أحفاده المشهورين «بويا عمر»، و«بويا أحمد»، و«سيدي محمد مول الصهريج». وقد توفي سيدي رحال البودالي المعروف بالعديد من الكرامات ما بين سنة 1534م و1543م. ويوجد ضريحه بمنطقة زمران بقلعة السراغنة، وبجانبه قبر ابنته الوحيدة «الطاهرة».

أما قبيلة العروسيين الشرفاء، فقد عاش جدهم سيدي أحمد العروسي بمدينة مراكش، وكان أحد علمائها أيام السعديين، ولما اشتدت به الأحوال بمراكش نزع إلى الصحراء ونزل بمكان يسمى الطويلة قرب السمارة، وبقي هناك إلى أن توفي سنة 1581م تقريبا، والله أعلم، ودفن غرب السمارة.

أما قبيلة أولاد دليم فيقال إن السلطان أبا بكر المريني هو الذي أجلاهم إلى الصحراء، ويوجد أبناء عمومتهم في كل من «سيدي قاسم» و«بوشان» قرب «بن جرير»، وينطبق الشيء نفسه على شرفاء «توبالت» وهم معروفون بارتباطهم الوثيق بالزاوية الجزولية، وأبناء عمومتهم موجودون في عدد من مناطق المغرب، خاصة بمنطقة الصويرة. كما ينطبق أيضا على الشرفاء الفيلايين أحفاد «مولاي علي الشريف»، وأولاد تيدرارين الأنصار أحفاد مولاي بوعزة بو غندور الذي هاجر من شمال المغرب إلى صحرائه، والذين يتوفرون على عدة زوايا بالمغرب، وعلى أبناء أبي السباع أحفاد الولي الصالح سيدي المختار الذين نزحوا من أحواز مراكش إلى الصحراء المغربية، وغيرها من القبائل الأخرى الموجودة في الصحراء والتي لا يشك أحد في مغربيتها، والتي حافظت على الدوام على ارتباطها التاريخي والشرعي مع المغرب ومع سلاطينه، والتي لم يسبق في تاريخها أن حملت السلاح ضد بلدها، أو تمردت على سلطة العرش، أو تكونت لديها فكرة الانفصال عن المغرب، بل بالعكس من ذلك كانت دائما مع الوحدة وضد التجزئة. ولا يمكن لأحد أن ينكر التضحيات التي بذلتها هذه القبائل على اختلافها وبدون استثناء، من أجل حرية واستقلال هذا البلد العريق، والتي جاهدت بأموالها وأبنائها وقدمت قوافل من الشهداء الأبرار الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل وحدة وعزة هذا الوطن، والتاريخ يشهد على ذلك، وكانت دوما ملتفة حول العرش العلوي المجيد الذي تربطه وإياها أواصر البيعة الشرعية منذ عقود من الزمن، فكيف إذن سترضى هذه القبائل لنفسها أن تلطخ تاريخها وسمعتها وأجدادها الذين كانوا على الدوام

مغاربة أبا عن جد بالأوهام الانفصالية، التي تجاهلت كل هذه الحقائق وسعت إلى زرع الفتنة والتفرقة والأحقاد بين سكان الصحراء المغربية وإخوانهم في الشمال، خدمة لمخططات أعداء المغرب الرامية إلى زعزعة أمن واستقرار هذا البلد العظيم، الضاربة جذوره في التاريخ¹.

البيعة وأثرها في الاستقرار وربط أواصر المحبة وتجديد العهد بين شمال المغرب وجنوبه

دعا الإسلام إلى الشورى في الحكم وتدبير الأمور، وأوجب البيعة لإيقاظ الهمم وإحياء النفوس، وجمع القلوب وتوحيد الصفوف، وتقوية التعاون والإخاء بين الحاكمين والمحكومين، وفق ما بنى به الرسول صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام وأزال به العقبات التي اعترضت سبيله، ثم عمل الصحابة من بعده على اختيار خليفة يدبر أمرهم ويسير بهم على الصراط السوي الذي تركهم عليه نبي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فبلغهم المقاصد الحسنة وأقالهم العثرات، وجعل عهودهم محفوظة من كل انحراف أو زلل.

واستمر بعد ذلك العمل بالبيعة الشرعية فأسهمت في عمارة الأرض وتحقيق الأهداف الحضارية، وربط أواصر المحبة وجمع القلوب ورص الصفوف وتوحيد الجهود وإزالة العقبات، حيث وردت لفظة «البيعة» في شرح مسلم مأخوذة من «البيع»؛ أي أن المبايع للإمام يلزمه أن يقيه بنفسه وبماله، فكأنه بذل نفسه وماله لله تعالى.

والبيعة واجبة على كل مسلم لقول الرسول ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية». والبيعة بين المسلمين بالقول والفعل، والهدف منها التعاون على البر والتقوى والتضامن والتآزر، والرعية تعاهد إمامها وتوكله ليقوم بالأمانة والمهام المنوطة به، حتى يكون للأمة قائما بشؤونها، فهو ميثاق يحرم نقضه من غير مبرر شرعي، عظم الله شأنه وحذر المؤمنين من نكثه ومخالفته، قال سبحانه مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُم مَّنْ أُجْرَ أَجْزَاءٍ عَظِيمًا﴾².

وقال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني».

وهكذا يتضح أن النظام الذي أقرته الشريعة الإسلامية هو نظام عظيم فريد من نوعه، لم تعرفه الإنسانية على مدى تاريخها الطويل، ولم تنتبه إليه الفلسفات والإيديولوجيات التي تؤسس نظامها على اعتبارات

1 - الصحراء المغربية مسار قضية. ص 21-23.

2 - سورة الفتح، الآية: 10.

مادية اجتماعية وإنسانية، فنظام البيعة في الإسلام أساسه الإيمان، وبنائه بعيد عن الأغراض والمصالح الآنية الدنيوية الفانية، مستنده القرآن، ويسهم في خلق الأمة الوسط مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسْعًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾³، حتى يتسنى لهذه الأمة أن تكون مؤهلة للاستخلاف في الأرض.

ومن خلال نظرة خاطفة على تاريخ هذه الأمة نقف على صور من إجماعها على العمل بالبيعة الشرعية، فقد تواترت البيعة لأبي بكر الصديق يوم «السقيفة». واجتمع الصحابة بعد وفاته فبايعوا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأوجبوا على أنفسهم طاعته وتنفيذ أمره، وكذلك الأمر بعده مع سيدنا عثمان رضي الله عنه. وبعد وفاته رضي الله عنه كان طلحة والزبير أول من بايع سيدنا عليا كرم الله وجهه، ثم بايعه الصحابة في اتفاق وتوافق، وقد تطورت الأمور في زمن علي كرم الله وجهه، حتى لقي ربه مدافعا عن دين الإسلام وأسس ومبادئه، وعن شرعية الخلافة حريصا على أداء أمانة البيعة التي في عنقه.

وقد تطورت الأمور بعد ذلك إلى أن فر حفيده المولى إدريس إلى المغرب، وبايعه الناس على طريقة أسلافهم من التابعين المحافظين على السنة والجماعة، فألف خلافة شرعية في ربوع هذه المملكة، استمرت على تعاقب الدول وتلاحق الأزمان، متشبثة بتلك الأسس الشرعية التي جاء بها الإسلام والتي أسس لها الخلفاء الراشدون والسلف الصالح من هذه الأمة، والقائمة في مجملها على البيعة والشورى والوحدة. وقد بقي هذا الأصل ثابتا في المغرب سليما مؤسسا على البيعة محافظا على أصالته وشخصيته، حيث ظل صامدا في وجه بعض الأيديولوجيات الحديثة التي غزت العالم الإسلامي.

وتتميز «البيعة» في المغرب بكونها شرعية تستند إلى القرآن والسنة، مع الاجتهاد في دائرتها، أما هدفها فضمان الاستقرار والازدهار، وبشكل خاص المساواة في الحقوق والواجبات، وضمان الحريات العامة في مختلف المرافق والمجالات، وهو ما يعبر عنه بضمان حقوق الإنسان، وفتح المجال أمام المبادرات الحرة، ومنح الفرص لمختلف شرائح الشعب في جميع الميادين، فسلطة «الإمام» خالية من الاستبداد أو الديكتاتورية، بل هي اتفاق بين المحكومين والحاكم مؤسسة على العدل والمساواة، وتسير على الولاء بين الحاكم والمحكوم، ولعل هذا ما أتاح للمغرب أن يكون جبهة متراسة متحدة، تتحدى كل التكتلات وتتجاوز كل الصعاب⁴.

ويقول الأستاذ الحسين وجاج: "...إن البيعة في المغرب ما تزال على حالتها الإسلامية المعروفة منذ القديم، يتولى العلماء شؤونها وبينونها على المقاصد المعتبرة في الإسلام، فكما كانت أول بيعة مغربية للمولى

3 - سورة البقرة، الآية: 142.

4 - انظر: مجلة دعوة الحق، العدد: 397، ص. (31-34).

إدريس الفاتح مبنية على الطوعية والرضا، كذلك كانت بيعة "الداخلية" لمولانا الحسن الثاني المحرر والموحد للبلاد، وتكون دائماً بيعات المغاربة للموكلهم ذات طابع خاص.

وقد اعترف العالم أجمع بهذا النظام، وأجمع على أهميته في تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فعندما عرضت قضية الصحراء المغربية على أنظار محكمة العدل الدولية، اعترفت هذه الهيئة الدولية بعلاقة البيعة المتينة التي تربط أبناء هذه الأقاليم بملوك المغرب عبر التاريخ، وانطلقت من هذا المبدأ لتؤسس عليه حكمها واعترافها بذلك العقد الذي يربط بين الحاكم والمحكومين، والذي يدل دلالة واضحة على ارتباط سكان الصحراء بوطنهم المغرب وبملوكه، في ظل رابطة "البيعة".

فإذا عدنا إلى تاريخ المغرب وسجلاته الذهبية وجدناها تزر من أقدم العقود بنماذج مختلفة من البيعات، الصادرة عن أعيان كل المناطق، ومنها المناطق الصحراوية المغربية، إلى ملوك المغرب وأمرائه، تظل كلها شاهدة على هذا الرابط التاريخي، والالتحام التام بين العرش والشعب من جهة، وبين أبناء المغرب الواحد من أقصى شماله إلى أبعد نقطة في جنوبه، ويكفي أن نستحضر منها نماذج موجهة إلى بعض ملوك الدولة العلوية.

ومن أهم هذه البيعات:

1. بيعة أهل "توات" للسلطان العلوي عبد المالك بن السلطان مولاي إسماعيل، بتاريخ رجب 1140 هـ الموافق 1728 م، التي يحتفظ بها كتاب "أربعة قرون من تاريخ الصحراء"، للكمندان مارتان.

2. بيعة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، بمبادرة أحد الشيوخ الأعلام من صحراء شنقيط، الطالب احمد المصطفى الشنقيطي التاشيتي الوداني، المعروف بابن طوير الجنة، المتوفى سنة 1266 هـ - الموافق 1850 م.

3. بيعة الشيخ المختار الكنتي الحفيد بن محمد بن المختار الجد، المتوفى سنة 1270 هـ، الموافق 1853 م، للسلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام.

4. بيعة الشيخ احمد البكاري بن محمد بن المختار الكنتي، المتوفى سنة 1282 هـ، الموافق 1866 م. ومما جاء فيها ما نصه: "...فاعلموا أن صاحب هذه البيعة الشرعية، والخلافة النبوية هو إمامنا وإمامكم الذي بين أظهركم سيدنا ومولانا عبد الرحمان بن هشام، نصره الله بجنوده التي لا ترى ... فمن تمسك ببيعته تمسك بالبيعة النبوية الموروثة المشروعة، ومن أوفى بها وفى بالعهود الإلهية المفروضة المتبوعة، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه..."

5. بيعة إمام تندوف الشيخ محمد بن المختار بن اللعشم الجنكي، المتوفى عام 1285 هـ، الموافق 1869 م، للسلطان محمد الرابع، وقد خاطبه فيها بقوله: "وقد بايعناك على السمع والطاعة ولزوم السنة

والجماعة، والتمسك بالدعوة ببقائها إلى قيام الساعة في الرضى والسخط... والعسر واليسر...
والسراء والضراء، وعلى ما بواع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون“.

6. بيعة الشيخ ماء العينين، محمد مصطفى بن الشيخ محمد فاضل بن محمد مامين الحسني الشنقيطي،
نزىل ”تيزنيت“ ودفننها عام 1328هـ، موافق 1910م، الموجهة إلى السلطان مولاي عبد العزيز.

7. بيعة سكان مدينة الداخلة وإقليم وادي الذهب، المقدمة الى المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني
قدس الله روحه، يوم الاثنين 19 رمضان 1399هـ، موافق ل 14 غشت 1979م، والتي جاء فيها:
”ولما قضى الله بإجماع شمل الأمة المغربية، وأنعم عليها بعودة وحدتها الوطنية تحت علم حامي
وحدة البلاد وهادي شعبه إلى سبل الرشاد، محقق الأمانى، أمير المؤمنين سيدنا ومولانا الحسن
الثاني، وكنا نحن قبائل أولاد الدليم، والرقيبات، وأيت الحسن، والسكرانة، والعروسيين،
والزركيين، وآل الشيخ ماء العينين، وأولاد تيدرار، ويكوت، وإيمراكن، سكان وادي الذهب،
من أشد القبائل معرفة بخلاله الشريفة ومآثره الجليلة المنيفة... اجتمع شرفاؤنا وعلماؤنا وأعياننا
ووجهائنا، رجالنا ونساءنا، كبارنا وصغارنا، فاتفق رأينا الذي لا يتطرق إليه اختلال... على أن
نجدد لأمر المؤمنين وحامي حمى الوطن والدين سيدنا الحسن الثاني حفظه الله بالسبع المثاني،
البيعة التي بايع بها آباؤنا وأجدادنا آباءه وأجداده الكرام أنعم الله أرواحهم في دار السلام...“.

8. بيعة المرحوم الحاج خطري ولد سيدي سعيد الجماني في الثاني من نونبر 1985م لصاحب الجلالة
الملك الحسن الثاني قدس الله روحه، ومما جاء فيها: «...فإني أعاهد الله وأشهد على الإخلاص
لجلالتكم والتفاني في طاعتكم، وإنني أضع يدي في يدكم الكريمة لأجدد بيعتي وأؤكد ولائي
وطاعتي... لأن مبايعتك من مبايعة الله، وطاعتك طاعة له، قال الله تعالى: ﴿إِن الْكَايِن يَبَايِعُونَ
إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾¹.

9. بيعة الشيخ علي ولد البوهالي باسم الشيوخ والمواطنين الصحراويين المحتجزين في معسكرات
نواحي تندوف في 23 شعبان 1421هـ، موافق 20 نونبر 2000م. ومما جاء فيها: «مولاي أمير المؤمنين
وفاء لعهد الآباء والأجداد وتيمنا بما قضى به انتماؤنا وما مضى عليه الخلفاء، فإنني أصالة عن نفسي
ونياة عن أفراد قبيلة الركيبات وباسم سائر الشيوخ والمحتجزين من أبناء الوطن المغربي في مخيمات
نواحي تندوف، نجدد لجلالتكم بكل أمانة وإخلاص البيعة التامة على السمع والطاعة ولزوم
السنة والجماعة... ولقد كان أجدادنا وعلمائنا في ربوع الساقية الحمراء ووادي الذهب يحثون على
البيعة والتشبث بها والوفاء للعرش العلوي المجيد...“.

1 - سورة الفتح، الآية: 10.

واستمر عقد البيعة والتحام العرش بالشعب على عهد أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، فترسخت بذلك الروابط التاريخية والدينية للأمة المغربية، وتمت في ظل حكم جلالته دعوة كافة أهل الصحراء المغربية إلى الإسهام في تنمية أقاليمهم في إطار الجهوية المتقدمة أو الموسعة، تحت رعايته السامية، وارتباطا بالعرش العلوي المجيد، من أجل مغرب قوي موحد من طنجة إلى الكويرة، بإمكانياته الضخمة وخيراته الوفيرة وتآزر أهله وتضامنهم وتعاونهم في ظل البيعة وتحت ظلال العرش العلوي المجيد الذي يجدد كافة الشعب المغربي البيعة له من خلال الاحتفال السنوي بعيد العرش المجيد⁶.

ويتضح جليا من خلال هذا الجرد التاريخي، أن هناك ارتباط وثيق بين سكان الصحراء المغربية وملوك المملكة المغربية منذ عهود خلت، ومن هذا المنطلق كانت فكرة المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه الإعلان عن المسيرة الخضراء السلمية في غضون شهر أكتوبر من سنة 1975م، هو إعطاء الحق لأصحابه؛ أي إرجاع الصحراء المغربية إلى الوطن الأم «المغرب». هذا الحدث الخالد كان في الشهور الأخيرة من سنة 1975م، تلك الأيام الخالدة التي عاشها الشعب المغربي بقلب متفتح ومعنويات عالية، وحماس واع متدفق ... فما تم النداء الملكي حتى هب الناس جماعات وأفرادا، الكل يريد أن يحظى بشرف المشاركة في المسيرة الخضراء، وكانت تجمعات المتطوعين رجالا ونساء بالمدن والأقاليم أمرا مبهرًا..

لقد كان التنظيم محكما ودقيقا، ومما ساعد على ذلك الاستجابة التلقائية للمتطوعين...

وتحركت الحافلات ومختلف وسائل النقل من هنا وهناك وركابها ينشدون الأناشيد وزغاريد النساء تشق عنان السماء... وهم يلوحون بالرايات الوطنية كرمز للوطنية والفداء، ويحتضنون كتاب الله رمز السلم والوحدة والمحبة والإخاء... وصيحاتهم صادرة من الأعماق، يتجاوب صداها في الآفاق...

وفي كل جهة تقام أعراس الفرح، ومواكب الاحتفال بالحدث العظيم، ففي مدينة مراكش كان الاحتفال كبيرا، حيث تلاقت الوفود والتحم المتطوعون بإخوانهم من كل جهة وصوب... لا أحد يشعر بطول المسافة ولا بتعب الرحلة ولا بفتور أو إعياء...

وفي مدينة «طان طان» استقبلوا أحسن استقبال ورحب بهم سكان المدينة...

وبعد يومين واصلوا الرحلة إلى طرفاية في نشوة واغترباط، فمنهم من يقرأ القرآن الكريم، ومنهم من ينشد، ومنهم من يبتهل ويتضرع أو يسرد أحسن المواعظ وأيقظها للقلوب...

6 - انظر: مجلة دعوة الحق، العدد: 397، ص. (36-37).

وقرب طرفاية نصبت آلاف الخيام، حيث صممت مواقع في شكل هندسي محكم التناسق والتخطيط، وقسمت مضارب الخيام إلى أقاليم، وبكل إقليم من يسهر على النظام فيه وعلى إسعاف المتطوعين بما يحتاجون إليه من زاد ودواء...

وفي مضارب الخيام كانت تتعالى الأصوات بالتكبير والتمجيد لله الواحد الأحد بالدعاء والنصر لأمر المؤمنين مبدع «المسيرة الخضراء»، والكل كان يترقب كلمة القائد الرائد، لاختراق الحدود الوهمية... ففي تلك الليلة الحاسمة ليلة الأمر بالاختراق، كانت الطائرات الإسبانية تحوم حول المضارب وتحلق فوق المتطوعين قصد بث الرعب والهلع، لكن لا احد اكرث بذلك، بل كانت أصواتها تزيد معنويات المتطوعين.

وفي مضارب الخيام أقيمت أول جمعة بمحاذاة الأسلاك الشائكة التي وضعها الاستعمار الإسباني كحاجز بين المغتصب والمححر، هذه الصلاة لا تضارعها إلا الصلاة التي تقام بعرفات يوم الحج الأكبر⁷.
تلكم كانت ملحمة المسيرة الخضراء السلمية التي شملت 350 ألف مغربي سلاحهم القرآن الكريم وإيمانهم بالله لاسترجاع أرضهم المغتصبة من الاستعمار الغاشم، فتأتى النصر والفتح، قال الله تعالى: ﴿إنا فتحنا لافتحنا مبينا، ليغفر لنا الله ما تقدم من ذنبنا وما تأخر ويتم نعمته علينا ويفدينا حرانها مستغيما وينصر ك الله نصرنا عزيزا﴾⁸. صدق الله العظيم.

المراجع:

- مجلة «دعوة الحق»، العدد 397.
- مجلة «الإرشاد»، العدد 1، مارس، 1987م.
- كتاب «الصحراء المغربية مسار قضية»، إبراهيم امركي، مطبعة ورزازات، 2012م.

7 - انظر مجلة الإرشاد، العدد: 1، مارس، سنة 1987م، ص. 9-10.

8 - سورة الفتح، الآيات: (1-3).

عيد العرش: الرباط المقدس بين الملك والشعب

ذ. محمد العربي

أستاذ باحث بالكلية متعددة التخصصات - تازة

مقدمة:

يحتفل الشعب المغربي كل سنة بذكرىات وطنية عظيمة راسخة آثارها في أذهانهم. وإذا كانت هذه الأعياد الوطنية تذكّر بقيم الوفاء والترابط بين العرش والشعب، فإن عيد العرش يعد تقليدا عريقا ومكونا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنه في تثبيت الحقوق والواجبات؛ لأن الشعب بالعرش والعرش بالشعب، والتلاحم بينهما ضروري لمواجهة الصعوبات وتحقيق الأهداف والغايات المنشودة.

على هذا الأساس، سنحاول إبراز أهم محطات الاحتفال بعيد العرش تجسيدا لذلك الرباط المقدس بين الملك والشعب، والذي يستمد مشروعيته من التاريخ، ويميز المغرب عن باقي الدول الإسلامية.

1. السياق التاريخي للاحتفال بعيد العرش الذي فرضه الشعب على سلطات الحماية سنة 1933 وأهدافه

أ. السياق التاريخي للاحتفال بعيد العرش

لما توفي السلطان مولاي يوسف يوم 17 نونبر 1927م، خلفه ولده سيدي محمد، فعقدت له البيعة الشرعية يوم 18 نونبر 1927م وفي أعقاب ذلك ألقى السلطان تصريحاً جاء فيه: «أن الشعب المغربي ينتظر منا مجهودا مستمرا لا من أجل سعادته المادية وحدها، ولكن لنضمن له تطورا فكريا يكون متلائما مع عقيدته ويدفعه ليرتقي درجة عليا في الحضارة بأكثر ما يمكن من السرعة»¹.

يتضح منذ أول وهلة من خلال هذا التصريح، أن السلطان كان يدرك جيدا جسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه رغم صغر سنه، وقد حاولت سلطات الحماية منذ وقت مبكر عزل السلطان ومنع الاتصال بينه وبين رعيته، فكانت المناسبات الوحيدة هي مناسبة الأعياد الدينية، حيث «إن الاستعمار يعمل لبني سورا

1 - أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940، الطبعة الثانية، 2016، ص: 205.

سميكا بيننا وبين ملكنا، حيث يسير هو في طريق ونسير نحن في طريق آخر، وهكذا لا تنشأ تلك اللحمة الموحدة بين العرش والشعب»².

لقد كان أهم اختبار للتلاحم بين العرش والشعب هو الأحداث التي أعقبت صدور الظهير البربري في 16 ماي 1930م، الذي يعتبره بعض المؤرخين بمثابة صك ولادة للوطنية المغربية³، مع العلم أن هذا الظهير يجب أن ينظر إليه كتتويج لمراحل سابقة بحكم أن الإرهاصات الأولية للحركة الوطنية ظهرت قبل هذا التاريخ، «فتلك الحركة كان لا بد من أن تظهر للعيان بعد مرور عقدين من الاحتلال الأجنبي سواء كان الظهير البربري أم لم يكن»⁴.

لقد أدركت الحركة الوطنية الناشئة أن المؤامرات الاستعمارية، لا يمكن مقاومتها إلا بالتلاحم بين العرش والشعب، وهذا الرباط سيفشل محاولات العدو الذي كان شعاره «فرق تسد»، وأن سياسته البربرية نموذج من مخططاته في هذا المجال، لكن الواقع التاريخي أثبت عكس ما كانت تخطط له سلطات الحماية الفرنسية، إذ لم تمض إلا فترة قصيرة حيث تمكن الشباب المغاربة من تثبيت دعائم الوطنية والانتقال بالعمل السياسي إلى صعيد بالغ الأهمية، فقد احتشدت الجماهير لتفضح مؤامرة الحماية ثم نزلت إلى الشوارع تهتف وتصدع بمطالبها، بحيث ما إن بدا للاستعمار أنه قد تغلب على المقاومة القبلية حتى وجد نفسه وجها لوجه مع خصم مغربي آخر أخطر شأنًا لوجوده بجواره في كل مدينة، ولتزايد أعداده بشكل مطرد⁵.

وفي خضم هذه الأحداث، ترسخت لدى رجال الحركة الوطنية فكرة الاحتفاء بعيد العرش ردا على الافتراءات الماكرة التي روجت لها السلطات الاستعمارية، مفادها أن الاحتجاجات التي قامت بها الجماهير المغربية التي انتفضت على صدور الظهير البربري؛ كانت موجهة للسلطان الذي قد أمضى على الظهير، فرد الشعب بمبادرته إلى الاحتفاء بذكرى جلوس ملكه الشاب على العرش لأول مرة يوم 18 نونبر 1933م مفنديين بذلك الدعاية الاستعمارية الماكرة، ملزمة سلطات الحماية بتبني العيد الجديد الذي كان أول عيد وطني في تاريخنا وأول قرار فرضته الجماهير المغربية على السلطات المحتلة، فيجوز اعتباره من الانتصارات الأولى للقوى الشعبية الناشئة التي كانت في طور تنظيم صفوفها⁶.

2 - أبو بكر القادري، م.س، ص، 206.

3 - روبر أصراف، محمد الخامس ويهود المغرب، ترجمة علي الصقلي ومحمد كلزيم، الطبعة الأولى 1997، ص، 102.

4 - إبراهيم بوطالب، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 17، مطبعة أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ج II، ص 451.

5 - إبراهيم بوطالب، م.س، ص 459.

6 - نفس المرجع والصفحة.

إن الاحتفال بعيد العرش شكل محطة مفصلية في العلاقة بين العرش والشعب حيث عقد السلطان العزم على أن لا يتنازل بعد ذلك اليوم على شيء من سلطته للحماية، وظل هذا التحالف بين السلطان والوطنيين متواصلا إلى أن تحقق الاستقلال.⁷

ب. أهمية وأهداف الاحتفال بعيد العرش:

لقد اكتسب عيد العرش أهمية قصوى، لأنه جمع الشعب المغربي حول شخص السلطان، واستطاع سيدي محمد بن يوسف عن طريقه أن يوظف خطاب العرش، كأداة لإصدار البيانات العامة التي لم يكن هناك مناسبة أخرى للإعلان عنها.

وإذا كان المواطنون المغاربة ينتظرون خطاب العرش في حماسة وابتهاج، فعلى النقيض من ذلك تستقبله الإقامة العامة بنوع من الخوف والقلق، وليس من الغريب إذا وجدنا أن الإقامة العامة كانت تظهر رغبتها لإلغاء عطلة هذا اليوم.⁸

لقد جسد الاحتفال بعيد العرش استمرارية الثوابت الدينية والسياسية في تاريخ المغرب رغم خضوع المغرب لنظام الحماية.

2. تجسيد تلاحم العرش والشعب في تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال يناير 1944م:

لقد مرت الحركة الوطنية المغربية بمرحلتين:

المرحلة الأولى: تميزت بتقديم الوطنيين لسلطات الحماية برنامج إصلاح مسار الحماية في دجنبر 1934م، وكانت اللجنة التنفيذية لكتلة العمل الوطني قد استعرضت أوجه القصور والمظالم الناتجة عن الاحتلال الفرنسي واقرحت مجموعة من التدابير وقدمت نقدا مستفيضا لنقائص الإدارة المباشرة التي تمارس تدبير شؤون البلاد العامة تحت يافطة الدولة الشريفة الجديدة.

أما المرحلة الثانية: فتميزت بانتقال الحركة الوطنية إلى المطالبة بالاستقلال، وهذه الخطوة التي تشكل محطة فاصلة في تاريخ المغرب المعاصر لم يتم الإقدام عليها إلا بعد مشاوره بين الوطنيين والسلطان الذي بارك هذه الخطوة، «فالحلف بين الملك والشعب أعطى المطالبة بالاستقلال صبغة وإجماعا من الأمة، وأن ذلك كان هو التعبير الصحيح عن الفكر الوطني سواء عند الملك أو عند الشعب.»⁹ والواقع أن التحول

7 - بيرفير مورين، تاريخ المغرب منذ الاستقلال، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، 2010، ص 26.

8 - روم لاندو، أزمة المغرب الأقصى، ترجمة محمد إسماعيل علي، حسين الحوت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961، ج 2، ص 148.

9 - روم لاندو، أزمة المغرب الأقصى، م. س، ص 148.

في مسار الحركة الوطنية لا يمكن فهمه إلا إذا ما استحضرننا مجموعة من العوامل الداخلية المرتبطة بنضج الفكر السياسي لدى الوطنيين المغاربة والنتائج السلبية في جميع المجالات من جراء السياسة المتبعة من طرف سلطات الحماية...، أما بالنسبة للعوامل الخارجية، فيمكن حصرها في انهزام فرنسا في الحرب العالمية الثانية، وعملية الإنزال العسكرية على الساحل الأطلسي بقيادة الجنرال باتون «Patton»، ومؤتمر أنفا التاريخي يوم 22 يناير 1943. وخلال هذا المؤتمر لمح الرئيس الأمريكي للسلطان بإمكانية فتح آفاق للتعاون بين المغرب والوطنية الاستعمارية على المغرب. «لقد نجح السلطان سيدي محمد بن يوسف بن يوسف في أن يبرز أمام هؤلاء الزعماء الكبار في صورة القائد الواعي بمسؤوليته وبدوره التاريخي في تطلعات الشعب الذي يمثله، وكأنه تخلص من عباءة السلطان القديمة ليرتدي عباءة «الملك»».¹⁰ في ضوء هذه التطورات الداخلية والخارجية، استقر رأي اللجنة المكلفة بالاتصال بالملك على عرض فكرة المطالبة بالاستقلال، فتحمس لها منذ البداية وقال: «إن الوقت قد حان للمطالبة بالاستقلال على أساس أن يكون ذلك في ظروف من الهدوء وعدم إثارة أي اضطراب، حتى لا تنتهز الإدارة الفرنسية فرصة الحرب للانتقام من الشعب المغربي. وتقررت فكرة المطالبة بالاستقلال معه وعرض عليه بعد ذلك نص الوثيقة فوافق عليها كما وافق على رسالة التقديم وأشار ببعض الأفكار والتي تضمنتها الرسالة»¹¹.

لقد لقيت وثيقة المطالبة بالاستقلال التي سلمت نسخة منها إلى الجالس على العرش بوصفه رمز السيادة المغربية وإلى إدارة الإقامة العامة الفرنسية، باعتبارها ممثلة الدولة الفرنسية الموقعة لمعاهدة الحماية في 30 مارس 1912 مع المخزن المغربي، وإلى ممثلي وقناصل الدول العظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى... كما رفعت نسخ من وثيقة المطالبة بالاستقلال إلى مختلف الدول العربية¹²، تأييدا منقطع النظير في مختلف المدن المغربية ومن مظاهر ذلك حدوث مظاهرات في الرباط وسلا وفاس ومراكش...

3. تجسيد خطابي طنجة التاريخي والعرش لسنة 1947م مظهر من مظاهر التلاحم بين العرش والشعب.

لقد كان الحدث البارز الذي ميز سنة 1947م الزيارة التاريخية التي قام بها السلطان محمد بن يوسف إلى طنجة في شهر أبريل، والتي كان لها صدى كبير داخل المغرب وخارجه. وقبل أن نتناول أهمية الزيارة

10 - دانييل ريفيه، تاريخ المغرب من مولاي إدريس إلى محمد الخامس، ترجمة أحمد بن الصديق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة 1، ص 302.

11 - عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، مطبعة الرسالة، الرباط 1987، ح I، ص 223.

12 - إبراهيم الهلالي، نضال العرش والشعب من سنة 1937 إلى سنة 1955 وإلى عهد الحسن الثاني طيب الله ثراه، مقال ضمن ندوة علمية، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة 1، 2004، ص 71.

لا بد من الإشارة إلى أن سلطات الحماية حاولت منعها بخلق بعض الأحداث المرتبطة على الخصوص بمجزرة الدار البيضاء أو مأساة الدار البيضاء التي أوقعها الجنود التابعون لفرنسا بشعبه قبل اليوم المحدد لبدء الرحلة¹³. وتكتسي هذه الزيارة محطة مهمة في العلاقة بين العرش والشعب في كل ربوع المملكة، كما اختار السلطان أن يجعل من طنجة منبرا يتحدث منه بكل حرية إلى شعبه وإلى العالم، وفي هذا الإطار، عبر السلطان في خطابه التاريخي يوم 10 أبريل 1947م عن آماني الشعب المغربي في الحرية والوحدة والاستقلال، ولم يشكل هذا الخطاب مفاجأة لشعبه الذي كان على بينة من نواياه ومسايعه في ذلك السبيل منذ اعتقاله العرش، وإنما كانت الصدمة لديها قنة الاستعمار الذين طار عقلهم وانهارت أعصابهم لمجابهتهم بما يكرهون وما لا يخطر على بال¹⁴.

كما تناول الخطاب الانتفاء العربي للمغرب وحرصه على الانخراط في جامعة الدول العربية، ولم يذكر أبدا الارتباط مع فرنسا عكس ما كانت تنتظره هذه الأخيرة.

كما ظهر السلطان بمظهر القائد الفعلي لمسيرة بلاده التاريخية، بعد هذا الخطاب، ثارت ثائرة ذوي السلطة في الأوساط السياسية الفرنسية، وتم استدعاء المقيم العام «لابون» على عجل وتم استبداله بـ «الجنرال جوان» ومن هنا بدأ الصراع المفتوح بين الإقامة العامة والسلطان، والذي سيجسد لاحقا بالمعارك في الشوارع بين المغاربة والمسلمين والأوربيين¹⁵ ولعل ما يثير الانتباه، أنه لما حل عيد العرش في 18 نونبر 1947م، وألقى السلطان محمد بن يوسف خطابه التقليدي أكد على تصريحاته السابقة بمدينة طنجة، ومن ضمن فقراته «ولم نعد الخطة التي اصطفيناها لأنفسنا في خدمة بلادنا والسعي وراء مصلحة شعبنا، والإخلاص لمبدأ السلام الديمقراطي، وبذل كل مواهبنا حتى ينال رعايانا المخلصون ما يحق لهم جميعا من أن يكونوا أمة حرة تتمتع بكل حقوقها الشرعية وتحظى كأمة عربية مسلمة في وحدتها وسيادتها بترتيب مكانها الذي تستحقه بين كل الدول الحرة الممتعة بكل ما يجب لها من حقوق»¹⁶ لقد جسدت تنقل السلطان إلى طنجة تحولا نوعيا في استراتيجية النضال الوطني، فقد كان خطاب طنجة بمثابة إلغاء عقد الحماية، إذ ركز رمزيا على وحدة البلاد رغم الحدود الوهمية التي وضعها الاستعمار الإسباني والفرنسي لتحديد مناطق نفوذها، كما ألغى وصاية فرنسا على المغرب فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية.

13 - أحمد عسه، المعجزة المغربية، دار القلم للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى 1975م، ص 243.

14 - محمد المكي الناصري، العبقورية الحسنية وبروزها في عقد مبكر أمير الأطلس طارق الجديد، مقال ضمن مجلة «دعوة الحق» عدد 255. مارس 1986م، ص 7.

15 - دانييل ريفيه، تاريخ المغرب، م. س، ص 305.

16 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي م. س، ص 362.

4. مؤامرة 20 غشت تكشف عن انهيار الحماية والروابط الروحية التي تجمع بين الملك والشعب

لقد انتظرت السلطات الفرنسية تاريخ 20 غشت 1953م لتنفيذ مؤامرتها الدينية المتمثلة في نفي السلطان الشرعي نحو جزيرة كورسيكا، ثم منها إلى مدغشقر، بدون مراعاة الشعور الديني للشعب المغربي، لأن هذه العملية تزامنت مع ليلة احتفال المغاربة بعيد الأضحى ولعل هذا ما يفسر أن المغاربة امتنعوا عن ذبح أضحية العيد تضامنا مع ملكهم الشرعي الذي تم نفيه.

إن المتتبع للشأن المغربي يجب أن ينظر إلى هذا الحدث كتتويج لمراحل سابقة، لأن التحضير لعملية النفي بدأت منذ عام 1947 على الأقل من طرف الجنرال «جوان» ومساعديه «فليب بونيفاس» و«مارسيل فاللا» وكان هذا الثلاثي يسعى لإدخال مفهوم السيادة بين المغرب وفرنسا على المغرب وأنشأوا مجالس بلدية منتخبة في المدن ومجلس للوزراء، مع منح مديري الإدارة العمومية سلطات واسعة، مما دفع بالسلطان إلى الدخول في إضراب عن توقيع الظهائر التي تشمل على إصلاحات لا يوافق عليها، «ففي عام 1950 أدرك السلطان محمد الخامس أن اللباس الذي فصلته الحماية للمغرب أصبح ضيقا جدا، ولا بد من تغييره بعد كل التحولات المذهلة التي عرفتها في ظرف ربع قرن من الزمان»¹⁷.

وإذا كانت دورة تاريخية جديدة قد بدأت تظهر في ظل تغير المشهد الاقتصادي والاجتماعي في المغرب وما واكبه من تطورات على الصعيد الدولي المرتبطة على الخصوص بتصاعد حركات وموجات المستقبل في عدة مناطق من العالم، فإن ذلك لم يكن كاف لمنع السلطات الفرنسية من تنفيذ مؤامرة خلع السلطان الشرعي، وما قد يترتب على ذلك من نتائج قد تعصف بالوجود الفرنسي بالمغرب.

وعكس ما كانت تنتظره سلطات الحماية، فإن عملية نفي السلطان آثارت سخطا كبيرا بين صفوف المغاربة لأن فرنسا تجرأت على المساس برمز له نوع من المكانة والرمزية والقدسية في أذهان المغاربة، ويمكن اعتبار مؤامرة 20 غشت بداية النهاية للوجود الفرنسي بالمغرب، إذ انتفضت الجماهير في كل مكان «لم يكن سيدي محمد بن يوسف يوما ما أعظم قوة مما هو اليوم، وحاجتنا إليه أشد من حاجته لنا، لقد أسرنا جسده ولكنه يسيطر على أرواح وقلوب الملايين من المغاربة بشكل لم يسبق له مثيل»¹⁸ إن مؤامرة 20 غشت كانت قوة دافعة للتضحية والتلاحم بين العرش والشعب كما قال المغفور له الحسن الثاني وهو رفيق والده ووارث سره يوم 18 نونبر 1962 «طيلة أيام المحنة التي اجتزناها تقاسم الشعب المغربي وملكه نفس

17 - دانييل ريفيه، تاريخ المغرب، م. س، ص، 305.

18 - روم لاندو، أزمة المغرب الأقصى، م. س، ج II، ص 136.

المسؤوليات وكان التجاوب الروحي ووحدة الشعور بينهما هو الذي عجل بالتححرر النهائي. ولم يعد منذ ذلك الحين في الإمكان أن يتقدم المغرب في جميع الميادين إلا في ذلك الرباط المقدس القائم بين الشعب وملكه، إذ توثق ذلك الرباط وانعكست آثاره الحميدة على المؤسسات السياسية¹⁹. وبعد خلع السلطان الشرعي اشتعلت نار المشاعر الوطنية، واعتبر المغاربة أن أصحاب ابن عرفة الذين دبروا المؤامرات من خونة الوطن... وأصبح الدفاع عنه قضية حياة أو موت، وقد وصف «جان كوتير» هذه الحالة بقوله: «إن الوطن بالنسبة للمغاربة كانت تعبر عنه كلمتان هما: ابن يوسف»²⁰. لقد أدى خلع السلطان الشرعي إلى ظهور موقف جديد في حياة البلاد الدينية، فمنذ أن اعتنقت مراکش (المغرب) الإسلام والمساجد تردد أصدااء خطبة الجمعة باسم السلطان. وبعد حوادث أغسطس ألقى بعض الخطباء خطبة الجمعة باسم (مولاي) عرفة، وكانت النتيجة إما أنهم لم يجدوا في المساجد من يستمع إليهم وإما أنه قضي عليهم فجأة»²¹. وتبلور رد فعل الشعب المغربي على مؤامرة 20 غشت إلى الإسراع بالمرور إلى العمليات المسلحة التي بدأت تستهدف موظفي المخزن والجالية الأوروبية والفرنسية على الخصوص، ثم توالى العمليات المسلحة التي استهدفت بعض المقاهي وقاعات السينما والقطارات وضيعات المعمرين وحاول المقاومون اغتيال «ابن عرفة» و«الكلاوي»، وكل من ساهم في مؤامرات البيعة لابن عرفة، وبالموازاة مع ذلك تأسست تنظيمات مسلحة مقاومة مثل: «اليد السوداء» في فاس، و«كتائب طارق بن زياد» في الخميسات، و«الفرقة التحريرية» في أكادير، و«أنصار محمد الخامس» في الرباط، بالإضافة إلى التنظيم الشيوعي «الهلال الأسود» في الدار البيضاء²².

كما تأسس جيش التحرير الذي انطلقت عملياته المسلحة في أكتوبر 1955م ولقد برهنت هذه العمليات على أن الشعور الوطني والرغبة في طرد المستعمر قد انتشر في البوادي والمدن، مما أجبر رئيس الحكومة الفرنسية «ادغار فور» و«وزير خارجية أنطوان ببناي» لعقد مفاوضات في مدينة «ايكس لي بان» في نهاية شهر غشت 1955م دعي للمشاركة فيها ممثلوا القوى السياسية في المغرب، وتم خلاله تداول فكرة إنشاء مجلس العرش للتخلص من ابن عرفة وإعادة تنصيب محمد بن يوسف بعد إبعاد محمد بن عرفة إلى طنجة يوم فاتح أكتوبر 1954م، والتغير في موقف القائد «الكلاوي» يوم 25 من الشهر نفسه، فلم يعد هناك شيء يحول دون عودة السلطان محمد بن يوسف إلى المغرب²³.

19 - عبد الهادي بوطالب، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، م. س، ص 765.

20 - دانييل ريفيه، تاريخ المغرب م. س، 319.

21 - روم لاندو، أزمة المغرب الأقصى، م. س، 146.

22 - دانييل ريفيه، تاريخ المغرب، م. س، ص 320.

23 - نفس المرجع، ص 312.

5. تتويج تلاحم العرش والشعب بالاحتفال بالأعياد الثلاثة المجيدة

لقد تسارعت الأحداث بسرعة، مما عجل بعودة السلطان الشرعي إلى وطنه وشعبه وعرشه في 16 نونبر 1955م، فاستقبله الشعب المغربي عن بكرة أبيه كما لم يستقبل ملكا ولا بطلا من قبل، «فكل المغاربة رجالا ونساء»، شيوخا وشبابا، سكان مدن وأرياف، ومن جميع الميول والطبقات، زحفوا خلال ثلاثة أيام بلياليها على الرباط ليعبروا عن فرحتهم بلقاء محمد الخامس الذي أصبح يحمل رسميا منذ عودته مظفرا إلى وطنه لقب «ملك» بدلا من لقب «سلطان» وليجدوا ولاءهم له وتعلقهم بقيادته²⁴. إن احتفال الشعب المغربي بالأعياد الثلاثة المجيدة أيام 16 و17 و18 نونبر 1955م تحمل أكثر من دلالة، «وذلك بعودة جلالة الملك لمقر عرشه، وهو يوم الانبعاث القومي للدولة والأمة المغربيتين، ويوم الاستقلال الذي أعلنه جلالة الملك بمجرد وصوله، إذ لم يعد له بعد كل ما قام به، هو وشعبه من ضروب الكفاح أن يظل ملك الحماية، ويوم العرش المجيد، الذي هو أسبق هذه الأيام تأسيسا، لأن الشعب عرف منذ أول يوم، أن العرش سيكون له دوره الفعال في خلق الاستقلال وتكوين الانبعاث»²⁵. لقد تميز عيد العرش بالخطاب الملكي الذي استهله بقوله: «في هذا اليوم السعيد الذي منَّ الله فيه علينا بنعمتين؛ نعمة العودة إلى أعز الأوطان بعد طول غيبة وشدة وحنين، ونعمة الاجتماع بشعب طالما اشتقنا إليه واشتاق إلينا، ووفى له ووفى لنا بغير حساب. امتحنتنا وإياه الشدائد، فلم تنل من عزيمنتنا بل خرجنا منها، ونحن أقوى إيمانا بحسن مصيرنا وأكثر وعيا لحقوقنا وواجباتنا»²⁶.

بعد ذلك أوضح السلطان السياسة التي ينوي اتباعها قائلا: «آن أوان تظافر الجهود في العوائد والمؤسسات والحكم وأساليبه، كما يتطلب تحرير الفرد ليتمكن من التعبير عن آرائه آمنا مطمئنا»²⁷.

لقد كان السلطان محمد بن يوسف يذكر في مناسبة أن من يدعي العمل بالديمقراطية لا يمكن أن يشتغل تحت طائلة الأحكام العرفية، وأن إقامة المؤسسات الديمقراطية في المغرب يقتضي استقلال البلاد أولا وقبل كل شيء. ولذلك ما أحرزت البلاد استقلالها وعاد الملك من المنفى حتى انكب بالقول والفعل بوضع اللبنة الأساسية لنظام ملكي دستوري، إذ قال جلالته في خطاب العرش يوم 18 نونبر 1955م إنه سيجعل من مهام الحكومة المغربية «مهمة وضع أنظمة ديمقراطية على أساس الانتخابات وفصل السلطة في إطار ملكية دستورية، قوامها الاعتراف لجميع المغاربة على اختلاف عقائدهم بحقوق المواطن وفي

24 - أحمد عسة، المعجزة المغربية، م.س، ص 296.

25 - علال الفاسي، دفاعا عن وحدة البلاد، منشورات مؤسسة علال الفاسي، الطبعة 2، 2009، ص 298.

26 - روم لاندو، محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته، ترجمة ليلي أبو زيد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1، 1979، ص 124.

27 - نفس المرجع، ص 125.

الحريات العامة النقابية»²⁸. وأضاف عند تنصيب تلك الحكومة في يوم 17 دجنبر: «وغير خاف أن رغبتنا كانت وما زالت ترمي إلى منح البلاد نظاما ديمقراطيا في نطاق ملكية دستورية»²⁹.

لم يكن التوقيع على وثيقة الاستقلال إلا بداية لمرحلة جديدة من تاريخ المغرب المعاصر تميزت بإطلاق أوراش البناء التي تواصلت في السنوات الأخيرة من حكم محمد الخامس وامتدت في عهد الحسن الثاني طيب الله ثراهما، وتعززت في عهد وارث سرهما الملك محمد السادس الذي يقدر حجم الأمانة الملقاة عليه ويواصل البناء في جميع المجالات مما سمح للمغرب في عهده أن يكون له تموقع جيد في محيطه الإقليمي.

خلاصات واستنتاجات

- إن وقوف العرش في طليعة الحركة الوطنية والتفاف الجماهير حول ملكها وتعلقها بشخصه، هو الذي أجبر السلطات الاستعمارية على طي صفحة الماضي.
- فرحة المغاربة بعودة الملك الشرعي من المنفى، يشكل محطة فاصلة ومضيئة في تاريخ المغرب المعاصر، وقد عبر جلالة المغفور له محمد الخامس عن ذلك بقولته الشهيرة: «لقد خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». لقد كان الشعب المغربي على موعد مع ملكه كلما حل عيد العرش لمعرفة نبضات قلبه ومشاعره الدينية، ويتطلع معه إلى الوقت الذي تتحقق فيه أمانى المغرب الوطنية.
- إذا كان محمد الخامس رمز النهضة والتحرير مدة أربع وثلاثين سنة والحسن الثاني رمز البناء والأخذ بزمام المبادرة مدة ثمان وثلاثين سنة، فإن المغرب أصبح قادرا على مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين تحت قيادة خليفة هؤلاء الأئمة العظام رحمهم الله ووارث سرهم الملك محمد السادس باني المغرب الجديد.

28 - إبراهيم بوطالب، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، م س، ج 3، ص 897.

29 - نفس المرجع والصفحة.



عَرْشُ الْوَحْدَةِ وَالتَّلَاحُمِ

ذ. محمد البلغمي - شاعر من فاس

وَتَأْمَلِ النُّورَ الْوَلِيدَ	****	إِنْهَضْ مَعَ الْفَجْرِ الْجَدِيدِ
دُحْ بِالْأَغَانِي وَالنَّشِيدِ	****	وَأَصْنَحْ إِلَى الْأَطْيَارِ تَصْ
يَ تَهَزُّ فِي الْأُفُقِ الْبُنُودُ	****	وَارْقُصْ مَعَ النَّسَمَاتِ وَهْ
وَتَلَاحُمِ الشَّعْبِ الشَّدِيدِ	****	جَذَلِي بِوَحْدَةِ أَرْضِنَا
لِلْعَرْشِ وَالْمَلِكِ الْمَجِيدِ	****	وَارْفَعْ وَلَاءَكَ صَادِقاً
بُوبِ وَالْبَطَلِ الْفَرِيدِ	****	« لِمُحَمَّدٍ السَّادِسِ » الْمَحْ
وَمَنَارَةِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ	****	يَا تَاجَ عِزِّ بِلَادِنَا
بِالْعَرْشِ وَالْعِيدِ السَّعِيدِ	****	هَذَا بِبِلَادِكَ تَحْتَفِي
قَدَمْتُ مِنْ عَمَلٍ مُفِيدِ	****	وَتُشِيدُ مَزْهُوَّةً بِمَا
بِالْعِلْمِ وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ	****	مَلِكُ يَقُودُ شَبَابَنَا
دِ، فَلَا تَطْرُفْ أَوْ جُودِ	****	يَحْمِي الثَّوَابِتَ لِلْبِلَا
نَهْجِ النَّبِيِّ بِلَا مَحِيدِ	****	وَيَقُودُ أُمَّتَنَا عَلَى
مَا تَبْتَغِيهِ، وَمَا تُرِيدِ	****	مَوْلَايَ شَعْبُكَ مُدْرِكُ
دُهَالِنَا .. وَبِمَا نَجُودِ	****	فِي كُلِّ مَعْلَمَةٍ تُشَيِّ
لِتَقِيهِ مِنْ دَاءٍ مُبِيدِ	****	كَمْ مِنْ مَشَافِي شَدَّتْهَا
يُنْبِيكَ عَنْ عَزْمٍ وَطِيدِ	****	هَذَا مُرَكَّبُ طَنْجَةٍ
يَلْقَى الْعِلَاجَ وَيَسْتَفِيدِ	****	قَدْ شَادَهُ لِلشَّعْبِ كِي

وَمَزَارِعُ تُغْطِي الْغَلَا	****	لَ بِمَا أَضْفَتَ مِنَ السُّدُودِ
وَمُنَّاكَ تَوْفِيرُ الْمِيَا	****	هَ لِأَتَمَّهَا نَبْعُ الْوُجُودِ
فَرَبَطْتَ حَاضِرَ عَصْرِنَا	****	بِثَرَاثِ مَاضِينَا التَّلِيدِ
لَا يُنْكِرُ الْمَعْرُوفَ مِنْ	****	كَ سِوَى الْمُكَابِرِ وَالْعَنِيدِ
بُشْرَى لِأَبْطَالِ الرِّيَا	****	ضَةِ وَالْمَغَارِبَةِ الْأُسُودِ
قَدْ حَقَّقُوا نَصْرَ الْحَمَى	****	بِتَفَوُّقٍ جَازَ الْخُدُودِ
وَتَقَبَّلُوا حُسْنَ الثَّنَا	****	ءٍ مِنَ الْمُقَرَّبِ وَالْبَعِيدِ
كَرَّمَتْهُمْ بِسَمَاحَةٍ	****	مِنْ قَلْبِكَ الْحَانِي الْوُدُودِ
وَرَفَعْتَ قَدْرَ اللَّاعِبِي	****	نَ وَقِيمَةَ الْأُمِّ الْوُلُودِ
وَالْكُلِّ ثَمَّنَ مَا رَأَوْا	****	بِلِقَاكَ مِنْ عَطْفٍ وَجُودِ
لَا غُرُورَ إِنْ بَارَكْتَ مَا	****	بَذَلُوا ، وَضَحَّوْا مِنْ جُهُودِ
فَلَأَنْتَ فَرْعُ قَدْزَكَا	****	فِي الْفَضْلِ مِنْ خَيْرِ الْجُدُودِ
مَوْلَايَ هَاكَ نَحْيَةً	****	عَبَقَتْ كَأَنْسَامِ الْوُرُودِ
فَأَقْبَلَ بِهَا جَيَّاشَةً	****	بِالصَّدْقِ وَالْحُبِّ الْأَكِيدِ
وَاللَّهُ يَحْفَظُكُمْ لَنَا	****	بِقَدَاسَةِ الذِّكْرِ الْمُجِيدِ
وَتَعِيشُ فِي أَمْنٍ وَعَا	****	فِيَةِ مَدَى عُمْرٍ مَدِيدِ
تَرْعَى الْبِلَادَ مُؤَاوِرَاً	****	بِوَلِيِّ عَهْدِكَ وَالرَّشِيدِ

أَرْضُ الْبُطُولَاتِ رباعيات مهداة إلى الوطن الحبيب

ذ. عبد الكريم الوزاني - شاعر من فاس

مَغْرِبِي مَهْدَ الْمُرُوءَاتِ الْحَسَانِ
يَا رُبُوعاً سُورَتْ بِالْعُنُقَوَانِ
بِالسَّجَايَا وَالْمَزَايَا وَالْأَمَانِي
وَمُلُوكٍ تَوَجَّجُوا هَامَ الزَّمَانِ

يَا بِلَادِي أَرْضَ أَمْجَادِي وَأَجْدَادِي الْعِظَامِ
يَا طَرِيقَ النُّورِ وَالطُّهْرِ وَيَا حَبْلَ الْوَنَامِ
أَنْتِ قَيْثَارَةٌ خُلِدَتْ تَتَغَنَّى بِالسَّلَامِ
الصَّهِيلُ اللَّحْنُ وَالْحَيْلُ الْمَرَامِ

مِنْ طَرِيقِ الشَّمْسِ مِنْ أَرْضِ الْوَفَاءِ
عَمَرَ الرَّمْلُ جِبَاهَ الشُّهَدَاءِ
فَإِذَا الْعِزْمُ أَكَالِيلُ ضِيَاءِ
صَفْوَةُ الْخَلْقِ وَطُهُرُ الْأَنْبِيَاءِ

يَا دِيَّاراً شَعْبُهَا لِلنَّصْرِ رَائِدُ
 فِي رِكَابِ الْعَزْمِ مَوْعُودُ وَوَاعِدُ
 قَدْ حَبَاكَ اللَّهُ صَنْدِيداً وَقَائِدُ
 نُسْكَ إِدْرِيسَ عَلَى هِمَّةٍ خَالِدُ

يَا مَلِكِي مِنْ رُبَا الْفَيْحَاءِ إِشْرَاقُهُ عِيدِي
 ضَمَخَتْ بِالْعِطْرِ قَلْبِي وَوَشَّاحِي وَبُرُودِي
 إِنَّنِي يَا مَلِكُ لِلْأَفْرَاحِ قَدْ سَوَّيْتُ عُودِي
 كَيْ يُضِيَّ الْعِيدَ صَوْتِي وَقَصِيدِي



افتتاحية

5

ملف العدد

إمارة المؤمنين وضبط الاعتدال والتوازن بين روح العصر وروح الدين

9

✍ ذ. سعيد شبار (الكاتب العام للمجلس العلمي الأعلى).

إمارة المؤمنين وعنايتها بزوايا الصحراء المغربية ورباطاتها

19

✍ ذ. سمير بوزويطة (عميد كلية الآداب سايس - فاس)

عيد العرش المجيد أصالة وتجديد

37

✍ ذ. إبراهيم الوافي (رئيس المجلس العلمي لإنزكان أيت ملول).

إمارة المؤمنين والبيعة الشرعية

45

✍ ذ. محمد اوالسو (رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم صفرو).

إمارة المؤمنين أساس الاستقرار الروحي والإشعاع الديني في المغرب وباقي البلدان الإفريقية

57

✍ ذ. بدر الدين الحميدي (كلية الشريعة - فاس).

عيد العرش المجيد بين الرمزية الدينية والدلالة الاجتماعية

73

✍ دة. حكيمة شامي (أستاذة باحثة - الرباط)

إمارة المؤمنين ضمان للأمن الروحي والسلم الاجتماعي

83

✍ ذ. رضوان غنيمي (الكلية المتعددة التخصصات بالسيارة).

قول العلماء في الثوابت الدينية للمغرب: إمارة المؤمنين نموذجاً

93

✍ ذ. منير روكي (أستاذ باحث - برشيد)

- 101 جهود أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله في حفظ الأمن الروحي
 ✍ ذ. أنس عبد الهادي الحسيين (أستاذ باحث - تطوان)
- 109 البيعة وفق التصور الإسلامي السني
 ✍ ذ. هشام المتوكل (أستاذ باحث - مكناس)
- 117 المسيرة الخضراء السلمية بيعة شعبية للعرش العلوي المجيد من أجل تحرير الصحراء المغربية
 ✍ ذ. عبد المجيد محزوم (أستاذ باحث - وادي زم)
- 125 عيد العرش : الرباط المقدس بين الملك والشعب
 ✍ ذ. محمد العربي (أستاذ باحث بالكلية متعددة التخصصات - تازة)

ديوان العدد

- 137 عَرْشُ الْوَحْدَةِ وَالتَّلَاحُمِ
 ✍ شعر ذ. محمد البلغمي (فاس)
- 139 أرض البطولات
 ✍ شعر ذ. عبد الكريم الوزاني (فاس)

شروط النشر بالمجلة

- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:
- ✓ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلماً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
 - ✓ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
 - ✓ التقيد التام بكتابة الآيات القرآنية وفق المصحف المحمدي.
 - ✓ الاعتناء التام بعلامات الترقيم، والالتزام بالقواعد المتعارف عليها في تحرير البحوث والمقالات.
 - ✓ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم A4.
 - ✓ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
 - ✓ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
 - ✓ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
 - ✓ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وصفته وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
 - ✓ البريد الإلكتروني هو: alamihamid49@gmail.com
 - ✓ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
 - ✓ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
 - ✓ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
 - ✓ تصنيف البحث أو المقال وتنسيقه تنسيقاً جيداً.
 - ✓ هوامش التوثيق والإحالات والمصادر والمراجع تدرج في أسفل الصفحات وليس في آخر البحث أو المقال.
 - ✓ يكتب البحث أو المقال بخط Simplified Arabic مع التقيد بالمقاسات الآتية: 14 في النص، و10 في الهامش، و01 ما بين السطور.

ملف العدد المقبل

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاورين الآتيين :

- 1 - ذكرى ثورة الملك والشعب .
- 2 - جهود علماء المغرب في خدمة الحديث النبوي الشريف .



دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالكراسات الإسلامية وبشؤون النفاية والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية